قيام

العرش السعودي

دراسة تاريخية للعلاقات السعودية البريطانية

ناصر الفرج

قيام العرش السعودي

دراسة تاريخية للعلاقات السعودية البريطانية

الصفا للنشر والتوزيع
- لندن -

جميع الحقوق محفوظة

AL- SAFA PUBLISHING AND DISTRIBUTION LIMITED,
P.O.BOX 951,
LONDON SW9 OBE,
ENGLAND.
TELEPONE: 01 - 737 50821,

الإهداء

الى من عرف الحقيقة

فاظهرها...

او حاول

تمهيد

ليس بدعا في تاريخ البشرية أن تتوثق العلاقات بين أمة وأخرى ، أو دولة ودولة ، فمنذ قديم العصور والامم والشعوب والدول تجد نفسها ــ بدافع من مصالحها المشتركة ــ منساقة الى اقامة افضل الصلات وتوثيق اقوى الوشائج ، وكانت علاقات الجوار والعلاقات الاقتصادية والسياسية والعلمية في طليعة العلاقات التي تستأثر باهتمامها .

كما ان التعاون لتجاوز ظروف طارئة والتغلب على اخطار محدقة ، كان من اقوى الاسباب لاعادة السلام بين الكثير من الامم .

وتتراوح العلاقات الدولية عادة بين التعاون المرحلي الذي يستهدف تحقيق مصلحة مشتركة خلال فترة زمنية محدودة ، وبين علاقات يراد لها الدوام والاستمرار . والاثير بالاهتمام في التعاون والعلاقات الدولية هو ملاحظة مدى ما تحققه من مصلحة ومكسب وطني ، وتحقيق هذا يستلزم ان تظل العلاقة في نطاق التكافؤ في المكاسب والمصلحة الوطنية ، على ان لا تنقص ــ بأي حال من الاحوال ــ من سيادة الدولة ، ولا يمس ايدلوجية الامة .

والذي يستقطب اهتمامنا في هذا البحث ليس هو مجرد قيام علاقة بين الدولة السعودية والامبراطورية البريطانية ، وانما يرتكز بحثنا على مباديء اساسية هي تحديد نوعية هذه العلاقة ومعرفة ظروف نشوئها ووجود التكافؤ فيها ومدى ارتباطها بالمصلحة الوطنية والمنطلق الايديولوجي الذي تدعي الدولة السعودية الالتزام به ، فهل راعت الدولة السعودية هذه المباديء الاساسية في علاقاتها مع الامبراطورية البريطانية ؟ .

بريطانيا في الخليج

ان العلاقة بين الامبراطورية البريطانية والدولة السعودية لم تكن في يوم ما سوى حلقة من مخطط السياسة الانجليزية في الخليج ، ولم تكن منفصلة عنه في أي مرحلة من مراحل التاريخ الاستعماري للامبراطورية ، ولذلك يحسن بنا التعرف على تلك العلاقة من خلال التعرف على السياسة البريطانية في الخليج ككل .

منذ ان القى الاستعمار البريطاني ظله الثقيل على شبه القارة الهندية وهو يبحث عن الطريق الاسلم والاقصر التي توصله إليها ، وكانت الطريق المبتغاة هي الطريق البرية التي تربط اوربا بآسيا وتمر عبر البلاد العربية حتى تطل على الخليج ، وتنطلق منه الى ان تلامس الشواطيء الهندية حيث الشاي والتوابل واحلام الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس .

كانت الطريق البحرية التي تدور حول القارة الافريقية والتي اكتشفها البحار البرتغالي فاسكو دي جاما .. لا تحقق جميع المزايا التي تحققها الطريق البرية ، فبالاضافة الى طول المسافة .. فهي لم تكن دائما مأمونة العواقب ، وكثيرا ما كانت الامتعة والبضائع تصاب بالتلف ، زد على ذلك توافر امكانية الصدام في عرض المحيطات مع الاسبان والبرتغاليين الذين ينافسون الاستعمار البريطاني على مكاسبه الهائلة .

منذ عام ١٦١٥ والسياسة البريطانية تطرق ابواب الخليج بيد شركة الهند الشرقية ، باحثة عن الاسواق التجارية الفاحشة الربح ، والطريق القصيرة المأمونة ، والسيطرة الاستعمارية المستترة تحت شعار مكافحة القرصنة وتجارة الرقيق .

اهمية الخليج للاستعمار البريطاني

اشتد التدخل الاستعماري البريطاني في الخليج خلال القرن التاسع عشر ،

وتطور نفوذه من السيطرة على الطرق الملاحية وتأمين المصالح التجارية البريطانية ، على حساب المصالح المشروعة لابناء الخليج ، الى التدخل المباشر في شؤون الساحل العربي ، واستعمال القوة العسكرية في فرض اتفاقيات ومعاهدات جائرة تضع مقدرات هذه البلاد ومصالحها تحت رحمة النفوذ الاستعماري . وكان الشعب يقابل ذلك التدخل بمعارضة شديدة حسب امكانياته البسيطة ، الا أن سذاجة مشايخ الساحل ومشاحناتهم القبلية ومطامعهم الشخصية كانت اكبر عون للاستعمار البريطاني في تجريدهم من سلطاتهم واخضاعهم لنفوذه ، وباستثناء سلطنة مسقط التي بدأ تعاملها مع الاستعمار البريطاني منذ عام ١٧٩٨ ، فقد استطاعت بريطانيا خلال ثلث قرن تقريبا ان ترغم امارات ومشيخات الساحل العربي جميعا على توقيع معاهدات تبعية وحماية ، كما يتضح من الجدول التالي :

التاريخ	الامارة	نوع الاتفاقية
١٨٨٠	البحرين	معاهدة حماية
١٨٩٢	أبو ظبي	معاهدة تبعية
١٨٩٢	دبي	معاهدة تبعية
١٨٩٢	رأس الخيمة	معاهدة تبعية
١٨٩٢	الشارقة	معاهدة تبعية
١٨٩٢	عجمان	معاهدة تبعية
١٨٩٢	أم القوين	معاهدة تبعية
١٨٩٩	الكويت	معاهدة حماية
١٩١٥	السعودية	معاهدة حماية
١٩١٦	قطر	معاهدة حماية

وكانت هذه الاتفاقيات تتضمن فيما تتضمنه ثلاثة التزامات يتعهد الامراء والمشايخ بها هي :

١ ــ ان لا يدخلوا في اتفاقيات او مراسلات مع أية حكومة غير الحكومة البريطانية .

٢ ــ ان لا يوافقوا على اقامة وكيل لاية حكومة الا بموافقة بريطانيا .

٣ ــ ان لا يبيعوا ولا يرهنوا ولا يهبوا ولا يقبلوا احتلال اي جزء من اماراتهم الا للحكومة البريطانية .

ان تصميم الاستعمار البريطاني على تثبيت نفوذه في الخليج وحده كاف للدلالة على اهمية الخليج بالنسبة لبريطانيا ، ومع ذلك فان تصريحات المسؤولين البريطانيين والاستنتاجات التي خرج بها المؤرخون والسياسيون الذين عنوا بقضية الخليج توضح لنا بجلاء اهمية الخليج بالنسبة للسياسة والتجارة الاستراتيجية البريطانية ، وحسبنا ان نستعرض هنا بعض التصريحات التي ادلى بها المسؤولون البريطانيون لمعرفة ذلك :

اولا ــ بالنسبة لاهمية الخليج لبريطانيا ككل ، نورد ما يلي :

أ ــ تحدث المستر ريموند اوشي في كتابه « ملوك الرمال في عمان » عن تشبث بريطانيا بالخليج فقال (انه شريان الحياة الرئيسي لنا ، وقد اكد اكتشاف البترول وتقدم الطيران هذه الحقيقة ، وسيظل الخليج يسيطر على استراتيجيتنا الدولية سنين طويلة ، فهو يتوسط جميع خطوطنا البحرية الرئيسية الى الشرق ، ويحوي الموانيء والمراكز البحرية ومحطات الوقود اللازمة لاساطيلنا وبواخرنا وطائراتنا ، والدولة التي تسيطر على الخليج وساحل عمان تستطيع ان تحكم جزيرة العرب والعراق وايران وافريقيا ، وتستطيع ان تغلق قناة السويس) .

ب ــ وصرح وزير الخارجية البريطانية في مجلس اللوردات بتاريخ ٥ أيار ١٩٠٣ ، يقول (اننا نعتبر قيام دولة اخرى بانشاء قاعدة بحرية أو ميناء حصين في الخليج خطرا بليغا جدا على المصالح البريطانية ، واننا سنقاوم ذلك حتما بكل ما لدينا من الوسائل) .

ج ــ وصرح المستر بالموستون وزير خارجية بريطانيا في مطلع عام ١٨٣٨ قائلا (ان مهمتنا في الخليج هي وضعه تحت سيطرتنا البحرية بعيدا عن نفوذ أية دولة اخرى تستطيع منازعتنا في السيطرة ، ولكن بشرط ان لا تكلفنا هذه السياسة نفقات باهظة) .

د ــ وصرح اللورد كرزن في مجلس اللوردات بقوله (ان منزلتنا في الخليج تستند الى حصانتنا التجارية في ربوعه ، والى خدمتنا هناك منذ مائة عام ، والى المال المصروف والى المركز التجاري الذي اقمناه ، والى ما نحتفظ به من سيطرة

سياسية ، والى ما فوق ذلك كله من ان الخليج جزء من الحدود البحرية الهندية ، وان شؤون الخليج السياسية مرتبطة بأمن وسلامة واستقرار الهند ذاتها ، وليس هناك من جديد .. فهو من البديهيات المسلم بها) .

هذا ما اعترف به الساسة البريطانيون بصدد أهمية الخليج لامبراطوريتهم ، اما ما لم يعترفوا به فهو ان الخليج يعتبر منطقة الاسترليني الهامة التي تغل منها بريطانيا اكثر من الف مليون جنيه سنويا .

وقد اكد هذه الحقيقة الباحث الفرنسي المسيو جان جاك بيربي في قوله (وهذا الشرق العجيب الذي كثر عنه الحديث على ألسنة الخبراء ، انما ينحصر أغلبه في الخليج العربي بصورة خاصة ، لان الخليج هو قلب الشرق الاوسط جغرافيا ، وبابه السحري ، وصندوقه الذهبي الذي يسيل له اللعاب) .

ثانيا ــ بالنسبة لاهمية المعاهدات البريطانية مع امارات الخليج .

يقول المستر موريسون (تسعى بريطانيا الى الاحتفاظ بمراكزها في الشرق الاوسط باتفاقاتها ومعاهداتها مع مشيخات الخليج ، وهدفها من ذلك هو ذات الهدف التقليدي ، ألا وهو الاحتفاظ بالطريق التجاري مفتوحا للشرق الاقصى ، وتنمية التجارة البريطانية ، وتأمين سلامة مراكز البترول) .

المطامع البريطانية في منطقة الاحساء

لكي تبقى بريطانيا القوة الوحيدة المسيطرة في الخليج ، فقد اتبعت لتحقيق هذا الهدف عدة اساليب منها :

١ ــ تحطيم جميع القوى البحرية المتواجدة في الخليج ، لذلك تعاونت مع الأتراك والايرانيين والسكان العرب على طرد الاسطول البرتغالي من الخليج ، ثم عمدت الى تحطيم الاسطول العربي العماني الكبير بدعوى مكافحة القرصنة وتجارة الرقيق ، ولو فتشنا عن الحقيقة لوجدنا انه لم تكن في الخليج قرصنة ، وانما كانت هناك عمليات دفاع عن النفس .. بعد ان شل الاسطول التجاري البريطاني ــ بواسطة القطع الحربية البريطانية ــ نشاطات النقل والتجارة التي كان يمارسها الاسطول العربي ، وحرم العاملين فيها موارد رزقهم ، مما حملهم على خوض معارضة مريرة وقاسية مع السيطرة البريطانية ضد قوافلها البحرية . وقد كانت هذه المعارك خاسرة بالنسبة للمقاتلين .. لانعدام التكافؤ في القوى الحربية ، ومع ذلك فانها كانت تكلف البريطانيين خسائر بالغة وتعوق تحركاتهم بعض الشيء .

٢ ــ إشاعة الفرقة والشحناء بين المشايخ والامراء العرب ، انطلاقاً من المبدأ الاستعماري المعروف « فرق تسد » ، فكانت تشجع سلاطين عمان على غزو مشايخ الساحل المتصالح ، وتشجع السعوديين على غزو عمان ، وتستثير الخلافات بين قطر والبحرين ، وتحرض الكويت على التمرد ضد الاتراك ، وكانت بريطانيا كلما قويت جبهة .. ضربتها بالاخرى ، لتبقي جميع الجبهات ضعيفة ، ولئلا تصبح احدى الجبهات من القوة بحيث تهدد في المستقبل مركز النفوذ البريطاني في الخليج ، او تقف حائلا دون توسع المطامع الاستعمارية .

٣ ــ إبعاد النفوذ الايراني والتركي عن سواحل الخليج وحصرهما في الداخل ، وقد اتبعت لابعاد النفوذ الايراني عددا من الوسائل والاساليب ليس يعنينا هنا ذكرها بالتفصيل ، ولكن كان أهمها اغراق ايران بالقروض لتقف ضعيفة امام التهديدات البريطانية ، والتدخل في شؤون امارات ومشيخات

الشاطيء الشرقي للخليج ، وجعل ميناء (بوشهر) على الساحل الايراني مقرا لممثليتها الدائمة في الخليج ، حيث يدير (المقيم السياسي) البريطاني او (رئيس الخليج) كما يسميه البعض ، شؤون الممثليات الاخرى المنتشرة في جميع الامارات والمشيخات .

أما بالنسبة للنفوذ التركي في البصرة والتبعية الاسمية في الساحل العربي ، فلم تفتر المحاولات البريطانية الدائمة لاضعافهما حينا او ازالتهما احيانا اخرى ، وقد بدأت في محاولاتها فصل البصرة عن العراق بواسطة السيد طالب النقيب ، الا ان تفجر الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ قلب الخطة ، واصبح العراق كله هدفا للمطامع البريطانية المباشرة .

اما الكويت .. فسبق ان اشرنا في الجدول السابق الى ان الاستعمار البريطاني افلح عام ١٨٩٩ في جر الكويت الى منطقة نفوذه وجعلها توقع معه معاهدة الحماية ، ولم يبق من الساحل العربي في الخليج خارج التبعية البريطانية سوى ساحل الاحساء الذي كانت تركيا تصر على انه جزء من امبراطوريتها ، وكانت بريطانيا تتحاشى الاصطدام المباشر مع الدولة التركية لاسباب دولية ترجع الى عام ١٨٥٦ ، حيث نصت معاهدة باريس على ضمان سلامة الامبراطورية العثمانية وعدم المساس بها ، ولذلك كانت بريطانيا تتطلع باستمرار الى خلق ظروف مناسبة وايجاد عملاء تستطيع باسمهم الانقضاض على هذا الساحل ومد سلطانها عليه لاستكمال نفوذها على جميع سواحل الخليج .

وكانت المحاولات البريطانية للسيطرة على ساحل الاحساء تتمثل في عدة صور من النشاطات الاستعمارية ، وتتلخص فيما يلي :

١ ــ الاصرار على ابعاد النفوذ المصري عن الخليج والتظاهر بانها تقوم بذلك حماية للمصالح التركية في المنطقة ، فقد روى المستر لوريمر في كتابه « دليل الخليج » انه في يوم ١٨ يونيه ١٨١٩ وصل الكابتن (ج . فوستر سادلر) من فرقة صاحب الجلالة ٤٧ الى ساحل الاحساء في مهمة خاصة لابراهيم باشا ، ولكن السفينة (فيستال) جنحت الى ساحل رملي وادى هذا الى افشال مهمته .

ويظهر مما ذكره صاحب دليل الخليج ان مهمة الكابتن سادلر هي تهديد ابراهيم باشا بالقصف البحري ما لم تبتعد القوات المصرية عن الساحل ، ولكن الخطة انتهت الى الفشل وانكشفت بسبب جنوح سفينته الحربية وتعطلها عن

القيام باي عمل حربي .

غير ان فشل مهمة سادلر لم يوقف بريطانيا من اعادة المحاولة ، ففي فبراير عام ١٨٣٩ صدرت تعليمات صريحة (للمقيم السياسي في بوشهر) بان يستخدم كل نفوذه لوقف تقدم القوات المصرية .

وفي مايو عام ١٨٤٠ حاصرت البحرية البريطانية القوات المصرية في القطيف وسيهات والعقير ، وقبل ذلك كانت بريطانيا قد دفعت بعملائها في البحرين الى احتلال جزيرة دارين سنة ١٨٣٤ ومحاولة احتلال القطيف سنة ١٨٣٥ .

٢ ــ القيام بعمليات عسكرية محدودة .

ذكر مؤلف دليل الخليج ان سفينة صاحب الجلالة (هاي فلاير) التي يقودها الكابتن باسلي بدأت العمل في ميناء القطيف سنة ١٨٦٦ ، ودخلت القوارب التي يقودها الملازم فيلوز ميناء القطيف يوم ٢ فبراير ودمرت الحصن الصغير المعروف باسم (برج أبو الليف) ، كما دمرت سفينة محلّية كانت في ذلك الميناء .

وذكر الدكتور محمود علي الداود في كتابه « الخليج العربي والعلاقات الدولية » ان وزير الهند اللورد جورج هاملتون كان يؤمن بضرورة اضعاف الادعاءات العثمانية على كل من البحرين وقطر والقطيف .

٣ ــ القيام باعمال التجسس

كما هي عادة بريطانيا عندما تعتزم احتلال بلد من البلدان ، فإنها تبدأ بدراسة كاملة للمنطقة وتغطيتها بالعملاء والجواسيس تمهيدا للاستيلاء عليها . ففي عامي ١٨٧٣ و١٨٧٤ ارسلت بريطانيا السفينة (كونستافس) الى سواحل الاحساء وباشرت عملية مسح بحرية على طول الساحل . ولم يكن المسح البحري هو كل ما قامت به بريطانيا خلال استعداداتها لطرد الاتراك من الخليج والجزيرة العربية واحلال النفوذ البريطاني محلهم بأي شكل من الاشكال ، بل أتمت مسح الجزيرة العربية نفسها بواسطة دوائر المخابرات التابعة لها واصبحت وزارة الحربية البريطانية تحتفظ بخارطة للجزيرة العربية اعادت طبعها قيادة الجيش في حكومة الهند البريطانية .

وفي فترات مختلفة حاولت بريطانيا النفوذ الى الساحل عن طريق الوكلاء البريطانيين او التجار الهنود المقيمين في القطيف ، ولقد تحدث مؤلف دليل

الخليج عن بعض هذه المحاولات نذكر منها ما يلي :

أ ــ في سنة ١٨٢٣ اثناء رحلة المقيم السياسي البريطاني ــ على طول الخليج ــ كان لمقيمية (بوشهر) مقيم وطني في القطيف .

ب ــ في سنة ١٨٦٤ فتحت اول وكالة تجارية تابعة لمواطني الهند البريطانية في القطيف .

ج ــ حاول تجار الهند البريطانية في البحرين باصرار تعزيز مركزهم في القطيف وتعيين وكيل قنصلي بريطاني فيها .

وكانت أجرأ محاولة قامت بها بريطانيا في سبيل النفوذ الى ساحل الاحساء هو السعي لاقامة امارة محلية تتمرد على الدولة العثمانية وترتبط مع بريطانيا بمعاهدة حماية على غرار الامارات والمشيخات المجاورة .

وكانت المحاولة الاولى عام ١٨٩٩ عندما زار الممثل البريطاني في البحرين منصور باشا بن جمعة ، وعرض عليه نيابة عن بريطانيا المساعدة على الاستقلال وتقديم الحماية البريطانية ضد اي اجراء عسكري قد تتخذه الدولة التركية ، ولكن منصور باشا بوازع من الحمية الدينية ووفاءً للدولة الاسلامية رفض العرض البريطاني جملة وتفصيلا . وقد نمي الى علم السلطان عبد الحميد امر هذه المحاولة ورفض بن جمعة قبولها فأنعم عليه برتبة الباشوية .

اما المحاولة الثانية فقد كانت عام ١٩٠٥ مع حسين النصر عمدة (سيهات) وقد رفض النصر العرض البريطاني من جانبه ولكنه أحاله على منصور باشا بن جمعة الذي اكد رفضه للمرة الثانية .

وفي سنة ١٩٠٧ تولى المحاولة المقيم البريطاني في الخليج المستر برسي كوكس الذي نزل ضيفا على منصور باشا في قصره المسمى (بقصر الدرويشية) بالقطيف وطلب منه الموافقة على تقديم مساعدة بريطانية للاستقلال بالاحساء والقطيف دون التقيد بمعاهدة حماية بريطانية ، ولكن منصور باشا اصر على ان شعوره الديني وحده يمنعه من التنكر للدولة الاسلامية ، وليس الحاجة للمعونة العسكرية او الحماية .

ولهذا كان اول هم بريطانيا بعد استيلاء ابن السعود على الاحساء والقطيف ، هو القضاء على اسرة بن جمعة وازالة نفوذها ، ولذلك سرقت بريطانيا البريد الذي كان يمر الى العراق بالبحرين وارسلته الى ابن السعود ، وكان فيه رسائل الى الدولة التركية تحرضها على اخراج ابن السعود من الاحساء ورفض التفاوض

معه لارتباطه بالدوائر الاستعمارية البريطانية في الخليج . وادى ذلك الى ان يقتل ابن السعود عميد اسرة بن جمعة ويشرد افرادها وينهب اموالها وقصورها ومقاطعاتها الزراعية . ويصبح مجرد الانتماء الى هذه الاسرة جريمة لا تغتفر .

ولما أعيت بريطانيا الحيلة في الحصول على واجهة وطنية لتبرير تدخلها المباشر في ساحل الاحساء ، ارسلت سفينة حربية عام ١٩٠٨ الى رأس تنورة بالقطيف فركزت علمها البريطاني هناك . ولكن ما كاد نبأ ذلك يصل الى مسامع أهل (صفوى) حتى بادروا الى انزال العلم البريطاني وتمزيقه وتحطيم ساريته ، مما ترك شعورا باليأس لدى المسؤولين البريطانيين في الخليج وحملهم على التفاوض المباشر مع ابن السعود وتسهيل مهمته في احتلال الاحساء نيابة عنهم وطرد النفوذ التركي من الخليج كله والى الابد .

العلاقات التركية ــ البريطانية
وسكة حديد لبغداد

كانت الدولة التركية عموما والخليج خصوصا مطمعا للدول الاوروبية الكبرى . فقد كان الوصول للمياه الدافئة في الخليج عن طريق ايران مطمعا لروسيا القيصرية . وكان الوصول للهند والخليج مطمعا لفرنسا عن طريق احتلال مصر وفتح قناة السويس . وكان بترول الموصل والخليج هدفا لامريكا عن طريق التمسك بفرض (سياسة الباب المفتوح) وكان الخليج نفسه وبتروله مطمعا لالمانيا عن طريق سكة حديد بغداد ــ الكويت . اما بريطانيا فقد كانت الدولة العثمانية من الدردنيل الى الخليج مطمعا مسيلا للعابها .

وبالرغم من المطامع المتعددة المصادر في امبراطورية الرجل المريض ، كما كانت تطلق عليها الدول الاوروبية ، فان هذه الدول كانت تخشى ان تنفرد احداها بالاسلاب فتشكل بذلك خطرا جسيما على مصالحها جميعا . ومن هنا فان هذه الدول اتفقت فيما بينها عام ١٨٥٦ على عدم المساس بالرجل المريض وان يستفيد الجميع من مرضه المزمن .

وخلافا للاتفاق الآنف الذكر فان كل دولة منها كانت تحاول التمرد عليه واقتطاع جزء من الامبراطورية العثمانية او الاستئثار بمكسب منها على طريقتها الخاصة كما سنعرض ذلك فيما يلي :

في اوائل القرن السابع عشر فاتحت شركة الهند الشرقية شركة (ليفانت البريطانية ــ التركية) في موضوع انشاء الطريق البري من اوربا نحو الهند . ولكن ذلك لم يصل بالمشروع الى الغاية المطلوبة وظلت الفكرة مجمدة حتى عام ١٧٨٢ عندما عاد (سليفان) من رحلته الى الهند عبر آسيا الصغرى ووادي الرافدين واقترح على الحكومة البريطانية فكرة انشاء طريق بري نحو الهند . وشكلت الحكومة البريطانية بعثة تحت أمرة (السير فرانسيس جسني) وارسلتها الى الشرق الاوسط فمارست البعثة نشاطها في الفترة (١٨٣٥ ــ ١٨٣٧) عقب اشراف حكومتي لندن والهند على تمويلها . وقدم جسني في نهاية الامر تقريرا اوصى فيه بمد سكة حديد بموازاة نهر الفرات نحو الخليج . وقد أثار جسني امكانية اختيار الكويت كنقطة نهاية للخط .

وبانتهاء فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ شعرت بريطانيا بان ايجاد طرق مختصرة تخضع كلية لفرنسا للوصول الى الهند هو امر في غاية الخطورة بالنسبة لوجودها ومصالحها في تلك المنطقة من العالم .

وبالرغم من ذلك فقد ظلت الحكومة البريطانية تتلكأ امام تبني مشروع السكة الحديد لما يكفلها من نفقات ، وخشية ان يبقى المشروع في حالة تحقيقه تحت رحمة الدولة التركية . ولذلك اكتفت بان يكون المشروع معدا للتنفيذ وقت الحاجة .

وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر عهد الى الضابط الالماني (هيلموت فون مولتكه) بمهمة تدريب الجيش العثماني . وقد اتاح له ذلك الاطلاع على اوضاع الدولة العثمانية ودراسة الامكانيات الاقتصادية التي يمكن للشركات الالمانية المساهمة فيها ، وقد كتب في ذلك عددا من المقالات والمؤلفات ولفت الانظار فيها لاهمية تركيا كحقل للنشاط الالماني .

وفي اوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر ، قبل السلطان عبد الحميد وساطة الفون بروسل . والهر كاولا لتمويل مشروع سكة حديد بغداد . وكان (الفريد كاولا) يعمل لصالح البنك الالماني وبنك فيرتينبرغ المتحد ، وبين عام ١٨٨٨ وعام ١٨٩٩ حصل البنك الالماني وبنك فيرتينبرغ المتحد ــ اللذين شكلا في ٢٣ اذار ١٨٨٩ شركة خاصة اطلق عليها اسم (الشركة العثمانية لسكك حديد الاناضول) ــ على عدد من الامتيازات لمد السكة الحديدية .

وبازدياد النفوذ الاقتصادي الالماني في الدولة التركية زاد نفوذها السياسي

الامر الذي اخذ يهدد المصالح البريطانية فصارت تعارض المشروع .

و لم يحدد الامتياز النهائي لسكة حديد بغداد الذي منح في ٥ آذار عام ١٩٠٢ نقطة الانتهاء على الخليج ، غير ان المعروف عموما ان الكويت كانت النقطة المقترحة لكي تكون نهاية سكة حديد بغداد .

ان وصول اتفاقية سكة حديد بغداد ـــ الكويت الى هذه المرحلة بات يهدد المصالح البريطانية في الخليج بخطرين ، اولهما تمكين الدولة العثمانية من مد نفوذها الفعلي الى جميع مناطق الخليج بدلا من الاكتفاء بالدعاوى اللفظية عن السيادة العثمانية . وثانيهما وصول المطامع الالمانية في الخليج الى مرحلة التنفيذ .

وكان احتمال وصول الالمان الى الخليج تحت ستار السكة الحديد قد اثار فزعا في الدوائر الاستعمارية البريطانية مما ادى الى قيام نقاش في مجلس اللوردات البريطاني ختمه وزير الخارجية بتصريح ادلى به في ٥ ايار ١٩٠٣ قال فيه ما نصه (اننا نعتبر قيام دولة اخرى بانشاء قاعدة بحرية او ميناء حصين على الخليج العربي خطرا بليغا جدا على المصالح البريطانية ، واننا سنقاوم ذلك حتما بكل ما لدينا من الوسائل) .

وقد زاد في حساسية بريطانيا الدلائل المتواترة عن وجود مستودعات ضخمة للزيت في شواطيء الخليج يمكن ان تكون بحد ذاتها الدرة الاثمن من الهند في التاج البريطاني . وهذا ما حثها على البحث عن عميل تستخدمه لطرد النفوذ التركي من الخليج دون ان تخل بالتزاماتها الدولية تجاه عدم المساس بالرجل المريض .

بريطانيا تبرز عبد العزيز آل سعود على المسرح الدولي

كانت بريطانيا في اواخر القرن التاسع عشر قد أنهت مخططاتها لطرد بقايا النفوذ التركي من الكويت والاحساء وقطر . ففي الكويت كان آل الصباح يعترفون بالسيادة الاسمية للدولة العثمانية ، ولكن هذه السيادة لم يكن لها وجود في تصرفاتهم العملية وعلاقاتهم السياسية . غير ان الاتراك من جانبهم كانوا قانعين بهذا الاعتراف الرسمي .

اما منطقة الاحساء فقد كانت للاتراك فيها هيئة ادارية مهلهلة وقوة عسكرية صغيرة ونفوذ يقوى ويضعف تبعا لشخصية الولاة والقادة العسكريين المقيمين في البصرة مركز الولاية .

تبقى قطر وهي شاطيء رملي داخل في عمق البحر على شكل لسان خال في اغلب فصول السنة من السكان ، ولا تفد له القبائل الا في الصيف عندما تزدهر الشواطيء بصيادي اللؤلؤ وسفن الغوص ، ولذلك فانها لم تكن تشكل شيئا ذا وزن للاتراك او الانجليز . فكان الاتراك يدعون انها قضاء تابع لمتصرفية الاحساء وكان الانجليز لا يجدون في هذا الادعاء مسا بنفوذهم المتنامي على مياه الخليج وشطئانه . الا ان حديث سكة حديد بغداد وامكانية مدها الى الكويت بواسطة الالمان جعل للكويت وزنا كبيرا في اهتمامات السياسة البريطانية ، وقد وجدت بريطانيا في مبارك الصباح رجلها المفضل لافشال مشروع سكة حديد بغداد ــ الكويت فاستدعته المخابرات البريطانية في الهند للسفر الى بومباي حيث عينت له الاستخبارات ــ كما يقول بنوا ميشان في كتابه (عبد العزيز آل سعود) ــ مرتبا ضخما ثمنا للخدمات التي سيكون في وسعه تأديتها فيما بعد . ولقد اقام مبارك في بومباي بضع سنوات يتتلمذ فيها على يد اساطين رجال المخابرات البريطانية ويبدد الكثير من الاموال على موائد القمار . وفي عام ١٨٩٧ صرح له بالسفر الى الكويت حيث اتم في فترة وجيزة قتل اخويه والاستيلاء على السلطة وعقد معاهدة حماية مع بريطانيا في عام ١٨٩٩ ، وبهذه المعاهدة خرجت الكويت من نطاق النفوذ الاسمي

للاتراك وفشل تماما مشروع سكة حديد بغداد ـــ الكويت .

بقيت مسألة ابعاد النفوذ التركي عن منطقة الاحساء ، وقد تولى مبارك الصباح بنفسه الجانب الاكبر في التمهيد لها والمشاركة فيها . ففي نطاق التمهيد يقول بنوا ميشان ما نصه (عندما رجع مبارك الى الكويت عام ١٨٩٧ ابتهج بالعثور على عبد العزيز ابن سعود واخذ عبد العزيز يحضر اجتماعات مبارك الخاصة حيث عرف امورا كثيرة كان يجهلها ، والتقى رجالا من مختلف الاقطار والاديان تجارا ومساهمين في شركات وعملاء بروصة وصيارفة ورجال سياسة ومغامرين وعملاء للدول الكبرى من بريطانيين والمان وفرنسيين وروس) .

وقد نجح مبارك في تجنيد عبد العزيز آل سعود لخدمة المخابرات البريطانية وشهد له بهذا النجاح (الميجر ديكسون) في كتابه (الكويت وجاراتها) عندما قال (ويعود الفضل الى الشيخ مبارك الصباح في تدريب عبد العزيز آل سعود وفي ميله نحو الانجليز) .

وبالاضافة الى هذه الشهادات فان الادلة المادية المتمثلة في الرسائل المتبادلة بين عبد العزيز آل سعود ومبارك الصباح تؤكد صراحة جهود مبارك الصباح هذه . لقد أورد السفير السعودي خير الدين الزركلي عدة رسائل بعث بها مبارك الى عبد العزيز يوصيه فيها بقبول جميع ما يطلبه منه الانجليز ، وينصحه بان يسلك معهم مسلكه في طلب الحماية ، وهذا نص ما جاء في احداها (مطلبك منهم اني ادخل معكم مدخل مبارك وانا ملزم انشاء الله ان اتبع رضاكم وامتثل امركم في كل الاحوال) .

وقد جاء في احدى وثائق المجلد رقم (٢١٤٠) المحفوظ في دار الوثائق البريطانية ما نصه (وفي يوم ١٤ اكتوبر ١٩١٤ كتب الشيخ مبارك لابن سعود ينقل له ملخصاً لمهمة شكسبير حسبما وصلته من حكومة الهند ويقول له بعد ذلك «قابله ورحب به وارض ربك وسلمه اجابة تسره لان طريقنا للراحة والسعادة لكلينا واحد يا ولدي وهو في اتباع نصائحهم») .

وبالرغم من العلاقة الروحية الوثيقة بين ابن السعود وموجههُ مبارك الصباح فان ابن السعود كما يذكر مؤلف كتاب (الحدود الشرقة لشبه الجزيرة العربية) ، أحس اخيرا بان وجود وسيط بينه وبين الانجليز يعني انتقاصا من منزلته وان استمرار هذه الوساطة يجعله دون سائر امراء الساحل السائرين في ركاب بريطانيا ، ولذلك ظل يطمح الى أن تكون له علاقة مباشرة معها . ومن

هنا يمكن تفسير صدور الخلافات التي نشأت بين الاثنين في بعض الاحايين .

كان كل ما تقدم عرضه في نطاق مرحلة التمهيد التي تولى فيها مبارك الصباح تدريب عبد العزيز والحاقه بركب المخابرات البريطانية للعمل وفق تعليماتها . اما على النطاق العملي فسارت الامور كما يلي :

في ١٨ ديسمبر ١٩٠٠ وبعد توقيع معاهدة الحماية البريطانية ــ الكويتية بسنة واحدة بدأت بريطانيا استفزازاتها للدولة التركية في شكل حملة عسكرية قادها مبارك الصباح وعبد العزيز آل سعود ضد ابن الرشيد (امير حايل وجميع بلاد نجد) الموالي لتركيا ، وقد توجه مبارك الى القصيم حيث اشتبك مع ابن الرشيد في موقعه (الصريف) اما عبد العزيز آل سعود فقد باغت مدينة الرياض واستولى عليها ، الا ان هزيمة مبارك من موقعه (الصريف) بتاريخ ١٧ مارس ١٩٠١ اجبرت عبد العزيز على الفرار من الرياض بينما ظل جيش الكويت المشتت يحاول سبيله الى العودة .

ولم يمنع الاندحار الشنيع الذي مني به عملاء بريطانيا من معاودة المحاولة عام ١٩٠٢ ، حيث قاد ابن السعود جيشا من العجمان والمرتزقة البدو مستعينا بالمال والسلاح البريطاني الذي قدم له بواسطة مبارك الصباح ، واستولى على مدينة الرياض بمساعدة من اهلها في وقت لم يكن بها من الحامية أكثر من أربعين رجلا .

وقد اكد مؤلف (دليل الخليج) الصلة بين بريطانيا واحتلال الرياض عندما قال (حين بدأ ابن السعود حركته من الكويت عام ١٩٠٢ لاعادة الاستيلاء على عاصمة اسلافه ، ارسل خطابا الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج التمس فيه النظر اليه «كرجل تربطه بالحكومة البريطانية علاقة وثيقة ، وان تهتم الحكومة البريطانية المحبة للخير بالنظر اليه») .

أما المعونة المادية التي قدمها مبارك الى عبد العزيز فتزعم المصادر السعودية بأنها كانت ثلاثين جملا وثلاثين بندقية بذخيرتها ومائتي جنيه من الذهب . ويظهر انه قصد بالتعتيم على حقيقة المعونة الكويتية ــ البريطانية ، اولا عدم الظهور بمظهر التحدي امام الدولة العثمانية وحصر الموضوع في نطاق المغامرة الفردية .. وثانيا اظهار عبد العزيز بين القبائل ــ الذين يمجدون القوة ويكبرون المغامرة ــ بمظهر البطل ليستقطب الانظار ويصبح في وضع معنوي يساعده على اتمام مهمته التي انتدبته لها الدوائر الاستعمارية البريطانية .. وثالثا ابعاد

الانظار عن التوجه الى الانجليز وابراز عبد العزيز كصاحب رسالة دينية تحيطه العناية الالهية اينما اتجه بقوات الغزو البربري التي قادها ضد المواطنين العزل في الجزيرة العربية .

تاريخ العلاقة بين بريطانيا والاسرة السعودية

ولو رجعنا الى الوراء قليلا وتصفحنا اوراق التاريخ القديم للاسرة السعودية للاحظنا وجود نوع من التعاون يتخلل فترات من سلطانها ، وهو تعاون يخضع لرغبة بريطانيا وحاجاتها الانية ، فتارة تضمهم الى عملائها في الساحل ضمن قطيع الاتباع ، وتارة تفصلهم عنها وتهدد الاتباع بهم للضغط عليهم وارغامهم على قبول ما لم يكن يسهل قبوله لولا ضغط الاسرة السعودية ، ويحسن بنا ان نورد هنا جملة من الوقائع التي يتمثل فيها تاريخ العلاقات القديمة بين الاسرة السعودية وبريطانيا ، وتنقسم هذه الوقائع الى ثلاثة اقسام هي :

اولا ــ تبادل الاتصالات بين مندوبين بريطانيين وامراء سعوديين وفي هذا المجال نورد ما يلي :

(١) في سنة ١٧٩٩ ارسل (مانستي) القنصل الانجليزي في البصرة مبعوثا عنه الى الدرعية يدعى (رينو) .

(٢) في عام ١٨١٨ قام الكابتن (سادلر) برحلة طويلة في الجزيرة العربية ..

(٣) في سنة ١٨٦٣ قام دبليو . جي . بلجريف برحلة الى الرياض . ان هذه الرحلات بالرغم من غموضها الا ان تاريخ بريطانيا الطويل في الشرق علمنا ان مثل هذه الرحلات لا تتم الا لاغراض استعمارية بحته .

هذا من جانب البريطانيين ، اما من جانب السعوديين فلم تكن ابواب الدرعية والرياض المتزمتتين تفتح الا لمن يرضى عنهم الامراء السعوديون ويعني ذلك ان وصول البريطانيين الى الدرعية والرياض كان باتفاق مسبق بين الطرفين .

ثانيا ــ التعاون السعودي البريطاني في نطاق الخليج وفي هذا المجال نورد ما يلي :

١ ــ كتب الامير سعود الكبير الى حكومة الهند البريطانية حوالي سنة ١٨١٠ خطابا جاء فيه ما نصه (ان سبب الخصومات المستمرة بيني وبين من يسمون انفسهم مسلمين انحرافهم عن كتاب الخالق ورفضهم الامتثال لنبيهم محمد ، فلست اذا اشن حربا على من ينتمون الى فرقة اخرى ، ولست اتدخل في عملياتهم المعادية ولا اساعدهم ضد احد ، فما دمت تحت سلطة العلي القدير فقد سموت على جميع اعدائي وفي هذه الظروف رأيت من الضروري ان ابلغكم باني لن ادنو من شواطئكم واني منعت اتباع عقيدة محمد وسفنهم من ان يقوموا باي تنكيل بسفنكم) .

وذكر الدكتور صلاح العقاد في كتابه (التيارات السياسية في الخليج العربي) انه حوالي سنة ١٨١٦ كان ممثل الدولة السعودية اكثر استعدادا من المشيخات للتفاهم مع الانجليز ، فقد ذكر ان حكومته توافق على توقف القتال ضد السفن الانجليزية في البحر . اما المشركون «ويعني بهم الامارات العربية التي لم تعترف بسيادة الدولة السعودية» فلا يمكن التقصير في الجهاد ضدهم .

٢ ــ في سنة ١٨٥٥ طلب شيخ بني نعيم من (كيمبل) القنصل البريطاني العام ان يعرف ما اذا كانت الحكومة البريطانية على استعداد لتنظيم ائتلاف من قبائل ساحل عمان المتصالح لاخراج السعوديين من البريمي فلم يوافق كيمبل على هذه الفكرة .

٣ ــ في سنة ١٨٦٥ قام الكولونيل (بيللي) المقيم السياسي البريطاني برحلة من بوشهر الى الرياض للتعرف على الجزيرة ومدى صلاحيتها للاهداف البريطانية ، وقد طلب فيصل بن تركي من بيللي ان تتولى المقيمية البريطانية رعاية مصالحه البحرية ، واكد لبيللي صداقته المخلصة وافصح عن رغبته في تنظيم المراسلات بينهما .

٤ ــ في عام ١٨٦٧ قام شيخ ابو ظبي وشيخ البحرين مجتمعين بمهاجمة القبائل الوهابية المقيمة في ساحل قطر ولكن السلطات البريطانية عارضت هذا الهجوم وتصدت سفنها للسفن المهاجمة وردتها .

٥ ــ ذكر الدكتور محمود علي الداود في كتابه (الخليج العربي والعلاقات

الدولية) انه كانت فكرة مدحت باشا احتلال الرياض بعد احتلال الاحساء سنة ١٨٧١ مهما كان الثمن ، ولكن معارضة بريطانيا الشديدة للزحف العثماني منع الاتراك من تحقيق هذه الفكرة .

ثالثا ــ تبادل الرسائل حول معاهدات واتفاقيات تعاون وصداقة بين بريطانيا وامراء الاسرة السعودية ، وفي هذا المجال نورد ما يلي :

١ ــ في منتصف سنة ١٨٣١ تقريبا تلقى حاكم بومباي رسالة من الامير تركي بن عبد الله عن طريق شيخ عجمان جاء فيها « رغبته في تجديد المعاهدة التي عقدت بينكم ــ الحكومة البريطانية ــ وبين الامير سعود » .

٢ ــ كتب خالد بن سعود في اوائل حكمه خطابا للمقيم البريطاني في البحرين يشير فيه الى رغبته القوية في ان تتجدد « علاقات الود والصداقة التي كانت قائمة بين ابيه سعود والحكومة البريطانية » ، فأرسل له المقيم ضابطا هو الملازم (جوب) لمقابلته في الهفوف في نوفمبر سنة ١٨٤١ .

٣ ــ في يناير ١٨٥٤ كتب فيصل بن تركي رسالة هامة الى (كيمبل) المقيم البريطاني في الخليج يذكره بوجود اتفاق بين اسلافه وبين بريطانيا ، تعهد فيه السعوديون بالمحافظة على السلام لمدة مائة عام ، وتعهدت بريطانيا بترك الساحل من الكويت حتى عمان تحت تصرف السلطة السعودية .

٤ ــ وكتب فيصل بن تركي خطابا آخر للمثل البريطاني يعبر فيه عن رغبته في «تجديد العلاقات الودية التي كانت قائمة بين ابيه تركي وبين الحكومة البريطانية» .

٥ ــ أورد صاحب كتاب (الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية) والاستاذ أمين سعيد في كتابه (الخليج العربي) نص المعاهدة التي وقعها محمد بن عبد الله بن مانع نيابة عن (عبد الله بن فيصل) في بوشهر بتاريخ ٢١ ابريل سنة ١٨٨٦ والتي سلمها الى (العقيد بيلي) المقيم السياسي البريطاني في الخليج . وهذا نص المعاهدة :

(اقر أنا محمد بن عبد الله بن مانع بالنقاط التالية واؤكدها :

«١» خولني الامام عبد الله بن فيصل ان اطلب الى الصاحب المقيم في الخليج ليكون وسيط الصداقة بين الامير عبد الله بن فيصل والحكومة البريطانية .

«٢» اؤكد للمقيم في الخليج نيابة عن الامام عبد الله بن فيصل ان الامام لن يلحق الاذى او الضرر بالرعايا البريطانيين المقيمين في الاراضي الواقعة تحت سيطرة عبد الله بن فيصل .

«٣» اؤكد للمقيم في الخليج نيابة عن الامام عبد الله بن فيصل ان الامام لن يهاجم او يلحق الاذى باراضي القبائل المتحالفة مع الحكومة البريطانية ولاسيما تلك المقيمة في مملكة مسقط ، وذلك باستثناء تلقى الزكاة المألوفة منذ امد بعيد . كتبت هذا بيدي في بوشهر يوم السبت الخامس من ذي الحجة سنة ١٢٨٠هـ . محمد بن عبد الله بن مانع

٦ ــ يظهر من النص الوارد في المادة السادسة من معاهدة دارين المعقود بتاريخ ٢٦ ــ ١٢ ــ ١٩١٥ بين عبد العزيز آل سعود وبريطانيا انه سبق لابيه عبد الرحمن عقد معاهدة مماثلة بينه وبين بريطانيا . وهذا هو النص (يتعهد ابن السعود كما تعهد والده من قبل .. الخ) .

وقد اكد عبد العزيز نفسه هذه العلاقات بين بريطانيا واسلافه في عدة مواقف وبمناسبات مختلفة ، فقد كتب لبرسي كوكس في ١٣ يونيو ١٩١٣ يقول (بالنظر لمشاعري الودية تجاهكم اود ان تكون علاقاتي معكم كالعلاقات التي كانت قائمة بينكم وبين اسلافي) .

من كل ما تقدم يتضح لنا ان العلاقة بين بريطانيا وبين عبد العزيز انما كانت تتويجا للعلاقات الحميمة التي كانت قائمة بينها وبين اسلافه . والشيء الوحيد الذي تختلف فيه معاهدة عام ١٩١٥ انها ترسخت على اسس استعمارية ركينة في وقت بدأت فيه الامم والشعوب المغلوبة على امرها تتطلع الى الاستقلال وتحطيم قيود التبعية والمعاهدات الاستعمارية الجائرة .

دور المخابرات البريطانية في تكوين الدولة السعودية

صرح مستشار السفارة البريطانية في جدة عام ١٩٥٤ (ان الملك سعود يعرف تماما باننا نحن الذين ساعدنا على خلق هذه المملكة) . وهذا الذي قاله المستشار المذكور حقيقة لا تنقصها البراهين ، فقد اوكلت المخابرات البريطانية الى دهادة رجالها العاملين في الخليج امر عبد العزيز آل سعود فتولى قسم منهم تدريبه وتولى القسم الآخر الوساطة بينه وبين الدوائر البريطانية الكبرى في الهند ، وتولى الباقون العمل عنده كمستشارين يسهلون له تنفيذ التعليمات البريطانية ويوجهونه لما ينبغي عمله تجاهها . ويحسن بنا ان نتعرض بايجاز لادوار بعض هؤلاء :

القسم الاول

يأتي في طليعة هذا القسم الشيخ مبارك الصباح والنقيب البريطاني وممثلها السياسي في الكويت (شكسبير) ، وقد تعرضنا سابقا لجانب من دور مبارك الصباح ، وحسبنا ان نعرف ان مبارك هذا يخاطب عبد العزيز بكلمة (ولدي) وان عبد العزيز يرد عليه بكلمة (والدي) وكان يلجأ اليه ويطلب نصيحته في معظم الامور ، قبل ان يوقع مع الانجليز معاهدة عام ١٩١٥ واثنائها ، كما كان البريطانيون يستعملون نفوذ مبارك على ابن سعود في اقناعه بقبول كل خطوة يقدمون عليها او تنفيذ كل مهمة يوكلونها اليه ، ولعل من المفيد ان ندرج هنا بعض الوقائع التي تؤكد ذلك :

أ ــ كتب مبارك الصباح الى عبد العزيز بعد احتلاله الاحساء عام ١٩١٣ يقول فيه مشيرا الى الكولونيل برسي كوكس (ولدنا العزيز دمت بخير .. طالت مخابراتنا مع الكرنل وقلت له احب ان ابن سعود معكم يدخل مدخلي ، وكل هذه المدة معهم في البحث) .

ب ــ في ٨ اكتوبر ١٩١٤ ابرقت وزارة الهند البريطانية في لندن الى نائب الملك في الهند تخطره بان ينقل لابن سعود عن طريق مبارك فحوى الرسالة التالية :

(يعلم الشيخ ان المانيا الان تستخدم نفوذها على تركيا لتقوم باعمال عدائية تضطر بريطانيا وحلفائها لخوض غمار حرب يودون تفاديها باخلاص وخاصة حكومة جلالة الملك صديقة الاسلام التقليدية ، فالشيخان مبارك وابن سعود يستطيعان حفظ السلام بتأثيرهما على قبائلهما وعلى اصدقائهما الاقوياء امثال شريف مكة وابن شعلان اللذين تؤثر فيهما معلومات خاطئة او وعود خداعة ، ولذلك فحكومة جلالة الملك تبعث الكابتن شكسبير وهو معروف عند العرب لشرح نواياها) .

ج ــ ذكر بنواميشان : (ان عبد العزيز اجرى اتصالات مع مبارك الصباح عام ١٩١١ طلب منه جس نبض اصدقائه الانجليز في امكانية احتلال الاحساء فرحبت بريطانيا بذلك) .

هذا بالنسبة الى الصلة بين ابن السعود ومبارك ، واما بالنسبة الى الصلة بين ابن السعود وشكسبير فحسبنا ان نورد ما يلي :

١ ــ ذكرت المس بل ذات المنزلة الكبرى في دار الاعتماد البريطاني ببغداد في كتابها : (فصول من تاريخ العراق القريب) : (ان الكابتن دبليو . جي . آي . شكسبير كان قد اقام صداقة شخصية مع ابن السعود خلال وجوده في الكويت كمقيم سياسي) .

٢ ــ في ٩ نوفمبر ١٩١٤ كتب شكسبير من البحرين الى المقيم السياسي في الخليج قبل ان يقابل عبد العزيز في الرياض يقول (ان ما يعرفه عن ابن سعود ــ اثناء وجودهما في الكويت ــ هو انحيازه لبريطانيا) .

٣ ــ اكد المستر فلبي ان شكسبير لو عاش ولم يقتل في معركة جراب ، لكان الموجه الاول للثورة العربية بدلا من لورنس ، ولكان ابن سعود هو الذي قام بها بحافز من حكومة الهند بدلا من الملك حسين .

القسم الثاني

ويأتي السير برسي كوكس في طليعة القسم الثاني الذي يلي مبارك وشكسبير

في التأثير على ابن السعود من رجال المخابرات البريطانية فلقد ذكر الاستاذ خيري حماد ــ الذي لخص كتب فلبي وتابع تاريخ حياته في كتابه (عبد الله فلبي) ــ (ان كوكس هو الموجّ بشؤون ابن السعود) وكوكس هذا هو بطل (معاهدة دارين) عام ١٩١٥ وبطل (بروتوكولات العقير) عام ١٩٢٢ ويكفي للتدليل على اهميته في توجيه عبد العزيز وتكوينه سياسيا الحادثتان التاليتان اللتان رواهما (الكابتن ديكسون) في كتابه (الكويت وجاراتها) .

الحادثة الاولى : ذكر ديكسون انه في اجتماع ضم السير برسي وابن سعود وديكسون نفسه ، فقد برسي كوكس صبره واتهم ابن سعود بانه تصرف تصرفا صبيانيا في اقتراح الحدود العشائرية اثناء مفاوضات العقير عام ١٩٢٢ .

اما الحادثة الثانية : فهي ان كوكس اعطي ابن سعود ــ اثناء تحديد الحدود بين الارض السعودية واراضي الكويت ــ ثلث الاراضي الكويتية بحجة ان سلطة ابن صباح في الصحراء قد تقلصت عما كانت عليه قبلا .

ان تصرف كوكس الاول يدل على مدى سيطرته على عبد العزيز ، كما يدل تصرفه الثاني على مدى اهمية كوكس في تعزيز سلطة عبد العزيز وتضخيمه سياسيا . واظهاره في كلا الحالين كاداة صغيرة بيد رجال المخابرات البريطانية في الخليج .

القسم الثالث

كانت مهمة هذا القسم من عملاء المخابرات البريطانية هي الاقامة الى جانب عبد العزيز في الرياض والعمل معه كمستشارين لمساعدته في تنفيذ المخططات البريطانية في الجزيرة والخليج . ومن ابرز هؤلاء :

١ ــ المستر فلبي : بدأ المستر سانت جون فلبي اتصاله بعبد العزيز آل سعود عام ١٩١٧ وقد ذكر مصطفى الحفناوي في كتابه (ابن سعود) الذي لخص فيه كتاب (ابن سعود) للصحفي الانجليزي كنت وليمز وكتاب (لورد اوف اربيا) لارم سترنج ــ ما نصه : (رأى الانجليزي ان ابن سعود مفيد لهم فارسلوا له بعثة مؤلفة من جون فلبي واللورد بلهافن ، فقابلهم ابن سعود بكل احترام واواهم في قصره بالرياض ، حتى غضب العلماء وسادات العرب الذين

يستنكرون الاتصال باعداء الدين واعداء الوطن) .

وذكر السفير السعودي خير الدين الزركلي ان البعثة كانت مكونة من الوكيل السياسي البريطاني في الكويت الكولونيل هاملتون والكولونيل اوين والمستر جون فلبي . وذكر خيري حماد ان فلبي غادر بغداد الى الرياض برفقة الكولونيل كاتليف اوين كمستشار عسكري بعد ان زودتهما السلطات البريطانية بمبلغ ضخم من المال على شكل جنيهات ذهبية وريالات ماريا تريزا وقد اعدت في صناديق متينة خاصة .

وقد لا تكون المرة الاولى تلك المرحلة التي وطئت بها اقدام فلبي ارض الجزيرة العربية في السابع عشر من اكتوبر عام ١٩١٧ عن طريق ميناء العقير ثم توجه مع اوين الى الرياض ، حيث قابلهم عدد من الفرسان على رأسهم كبير امناء ابن سعود المدعو (ابراهيم بن جميعة) برفقة هاملتون وقد طالت لحيته وبدا في ثيابه العربية بدويا من ابناء الصحراء .

وكانت لفلبي في بلاد ابن سعود مهمات كثيرة أبرزها تحريضه على حرب ابن الرشيد عام ١٩١٧ وحرب الشريف حسين عام ١٩٢٤ . وقد قام فلبي بدور خطير في التمهيد لاحتلال الحجاز ، وكان فيما قام به التجسس على الملك علي بن الحسين اثناء حصار جدة وارسال المعلومات الى عبد العزيز عن طريق السفارة البريطانية بواسطة الممثلين في الخليج .

وقد كان لنجاح فلبي في تحريض ابن سعود على حرب ابن الرشيد اثره الكبير لدى الدوائر الاستعمارية البريطانية ، فاصدر المسؤولون فيها اوامرهم عام ١٩١٨ الى (الماجور فلبي) بالاقامة في الرياض بصورة دائمة .

وفلبي خلال الثمانية والثلاثين عاما التي قضاها الى جوار ملوك آل سعود كان العميل الاكبر للاستخبارات البريطانية . وقد اعترف فلبي نفسه بجانب من ذلك عندما قال (في عام ١٩٣٩ بعد نشوب الحرب العالمية الثانية طلبت الي المخابرات في وزارة الحرب البريطانية ان أكون مندوبا عنها في البلاد العربية ، وأن انقل اليها ردود فعل العرب تجاه الحرب ، لقد كان الاقتراح مغريا فوافقت عليه) .

وذكر فلبي ايضا في كتابه (ايام عربية) ان فؤاد حمزة وكيل الخارجية السعودية قال له يوما في حديث خاص :

(اسمع يا فلبي لا شيء يقنع معظم الناس في مكة وجدة بأنك لست

جاسوسا بريطانيا في صفوفنا ، وان ما تتظاهر به من صداقة للعرب ليس الا ستارا لعملك في سبيل مصالح بلادك) .

٢ ــ حافظ وهبة : كان حافظ وهبه (وهو من مصر) يعمل في الكويت في ظروف غامضة اذ لم يكن لمصر انذاك اية صلة بالخليج . وبدون مقدمات كتب كما ورد في كتابه (خمسون عاما في الجزيرة العربية) الى عبد العزيز عام ١٩٢٣ يحرضه على غزو الحجاز . وقد جاء في رسالته هذه ما نصه : (ان الشريف واولاده ليسوا بأعداء لكم فقط بل هم اعداء انفسهم واعداء للعرب والمسلمين كافة ، فالعمل لاستئصالهم عمل لاحياء الجسم بقطع بعض الاعضاء الضارة التي يخشى من سريان ضررها للجسم كله) .

وفي نفس العام ١٩٢٣ التحق بخدمة عبد العزيز واستمر يحرضه ضد الملك حسين . وقد اكد ذلك بنفسا عندما قال (اشرت على الملك عبد العزيز ان يضرب ضربته بالاخوان النجديين وكان يتخوف من الانجليز ، فشرحت له الظروف التي تحيط بالملك حسين ، وانه اصبح الان مناوئا للانجليز واخذت اهيء الجو بمنشورات حماسية تحمل اسم (الامير فيصل) حملت فيها على الملك حسين في اعلانه الخلافة بدون استشارة المسلمين وهو ليس بالرجل الذين يقوى على تحمل اعباء الخلافة . فكان لهذه المنشورات دوي في الهند ومصر) .

وهنا يحق لنا ان نتساءل لمصلحة من هذا التحريض ؟ ولماذا يروج له في البلاد الخاضعة للنفوذ البريطاني حيث يوجد المكتب البريطاني في مصر والمكتب البريطاني في الهند ، وهما مكتبان للاستخبارات البريطانية للتنسيق بين نشاطاتها في الشرق . كما نتساءل .. من ارسل حافظ وهبة الى الرياض ومن اغراه بحياة الصحراء والرمال ؟ .. كل ذلك يجيب عليه ترشيح حافظ وهبه نفسه لاشغال منصب اول وزير مفوض لابن سعود في بلاط سانت جيمس بلندن عام ١٩٣٠ .

ويلمح حافظ وهبه الى صلته بالانجليز حين يقول (لقد استدعاني مستر ايدن الى وزارة الخارجية وسألني اننا نثق بتدبيرك للامور وبتجاربك ومعرفتك العقلية العربية) .

عبد العزيز يتبنى تنفيذ المخططات البريطانية

عرفنا مما تقدم ان بريطانيا بواسطة دوائر استخباراتها في الخليج والهند اتت بابن السعود الى قمة السلطة في جزيرة العرب . ولم يكن ذلك حبا بسواد عيون ابن السعود ، وانما كان وسيلة لتنفيذ اغراض سياسة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمخطط الاستعماري في الجزيرة العربية والخليج والعراق ، وبالمقابل فان عبد العزيز كان عند حسن ظن بريطانيا فلم تخب آمالها فيه كما خابت في الشريف حسين . وقد كانت الخدمات التي قدمها لبريطانيا كثيرة ومنوعة نعرض هنا بعضها :

(١) القيام بدور الطابور الخامس

حرصت بريطانيا لكي تنفذ مخططها في طرد النفوذ التركي من الخليج والعراق ان توجد لها قاعدة من العملاء يتولون نشر الدعاية لبريطانيا وترويج عوامل الهزيمة للاتراك وتقديم المعونة العسكرية الجانبية لجيوش الغزو البريطانية عند اللزوم . وقد عملت لذلك على محورين ، محور البحرين الابيض والاحمر فاستعملت عدة عناصر كان ابرزها الشريف الادريسي والشريف حسين وغيرهما ، ومحور الخليج والعراق واستعملت فيه مبارك الصباح وعبد العزيز السعود وطالب النقيب وخزعل بن مرداو الكعبي ، وفشلت بريطانيا في جر ابن الرشيد وآل السعدون الى هذا التجمع الاستعماري .

وقد اكدت ذلك الوثيقة المحفوظة في دار الوثائق البريطانية ضمن المجلد رقم ٢١٣٩ التي جاء فيها ما نصه (ايدت البحرية البريطانية بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩١٤ وجهة نظر السفير البريطاني في استامبول الذي يقول بتنظيم مقاومة عربية في منطقة الخليج مكونة من ابن سعود وشيخ الكويت وغيرهما من مشايخ العرب في المنطقة) .

وفي التجمع الذي كان يعقد اجتماعاته تحت اشراف عملاء المخابرات البريطانية الانجليزية في الكويت والبصرة والمحمرة ، اتيح لابن السعود ان يلعب دورا بارزا من ادوار الطابور الخامس . وكان من المهمات التي انيطت بعبد العزيز ما يلي :

أ ــ القيام بمحاولة جر عجمي السعدون زعيم عشائر المنتفك في العراق الى قافلة العملاء ، وتشجيعه على التعاون مع الانجليز ضد الدولة العثمانية ، فقد ذكرت (المس بل) في كتابها (فصول من تاريخ العراق القريب) « ان ابن سعود كتب الى عجمي السعدون يحرضه على الاتراك ويدعوه للانضمام الى الانجليز ، وقد اجابه عجمي السعدون بكتاب هذا نصه » :

(اخي المبجل من المعلوم جيدا عندي بدرجة لا يتطرق اليها الشك ان موقفي هو موقف من يسعى لمرضاة الله العلي العظيم ، ولاعلاء اسم العرب باظهار الولاء لهم ، وأي ولاء أعظم من أن اسارع باخلاص الى ما أمرني به الله في كتابه المجيد بالجهاد ضد الكافرين اعداء الله واعداء الدين ، ولا يمكن ان تأخذني في الله لومة لائم انا الذي اسعى لحب الله ونبيه وبلادنا ولحمايتها من ان يدنسها الكافرون . وقد كان لي أمل كبير بتدينكم وحميتكم العربية ان توافقوني رأيي وتؤيدوني فيما اقوم به من أجل اعلاء كلمة العرب . وليس هذا بفضل الله تمردا انما هو موقف بسيط معروف . واذا كانت الحكومة التركية تذب عن حوزة الاسلام فهي عضدي وعضد قبائلي ، وانا حقا حاكم مطلق بأمر الله وأمر الحكومة . واني مقتنع ومعتقد بأني سائر في الطريق السوي الذي يرضي الله والعرب سيرا مستمرا لا يثنيني عنه شيء ، وهذه هي الروح الاسلامية ، وهذا هو الوضع . واختم ما وجب علي قوله مستشهدا بكلام الله « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » واذا كنت قد اعطيت اي وعد لهم في الماضي فيجب ان اتقيد تنفيذ ما وعدت به . لكنني اعطيت عهدا بخدمة ديني وحكومتي وحميتي ، والله تعالى أحسن من يكون في عوننا ، واذا حاججتموني بترك الدين جانبا فالواجب يدعوني الى الوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسي من قبل لحكومتي ، وهذا أول ما تقتضيه شيمة العرب ، وهذا ما وجب بيانه) .

ب ــ ذكر السفير السعودي حافظ وهبة في كتابه خمسون عاما في جزيرة العرب ان عبد العزيز عندما زار الكويت عام ١٩١٦ اجتمع بكبار اهلها وكان

حديثه معهم كله في تشديد النكير على الاتراك والحظ من شأنهم والتنويه بأنه لو كان في بدنه قطرة دم تميل الى الاتراك لبذل كل وسيلة لاخراجها من جسمه .

ج ــ في سنة ١٩٤٢ ارسل عبد العزيز احد ابنائه ليبث الحماس في نفوس مسلمي الهند الذين يحاربون مع الجيش البريطاني في جبهة العلمين ، روى ذلك الدكتور صلاح العقاد في كتابه (جزيرة العرب في العصر الحديث) .

(٢) إحتلال الأحساء والقطيف

كان بقاء الشريط الساحلي ــ الممتد من الكويت الى قطر ــ تحت السيطرة الفعلية للاتراك يشكل خطرا على النفوذ البريطاني في الخليج ، وكانت بريطانيا تخشى ان تتوسع مطامح الاتراك ومن ورائهم الالمان للسيطرة على بقية الخليج فقررت بريطانيا منذ نهاية القرن التاسع عشر القضاء على آخر مظهر للنفوذ التركي في الخليج بأسرع ما يمكن . ولذلك وجدت بريطانيا في تحريض عبد العزيز على احتلال الاحساء والقطيف ، كما يقول بنوا ميشان (تحقيقا لهدفها دون الدخول في صراع مكشوف مع الامبراطورية العثمانية واثارة ممالك اوربا وامارتها ، واذا تولى ملك نجد طرد الاتراك فلن يتعدى الامر نطاق خلاف داخلي محدود) .

وقد كانت فكرة تكليف عبد العزيز باحتلال الاحساء مدار بحث بينه وبين بريطانيا*. وكانت المحادثات بهذا الشأن دائرة منذ وقت طويل ، ففي عام ١٩٠٤ شارك جاسم بن ثاني حاكم قطر في التمهيد لهذا الحدث الخطير . وفي عام ١٩٠٦ عرض ابن السعود موافقته على احتلال الاحساء اذا اعانته بريطانيا بارسال اسطولها للمشاركة في العمليات الحربية .

وبالرغم من الرغبة الملحة لبريطانيا في طرد الاتراك من الاحساء فقد كانت تود ان لا تكون مضطرة لتكليف عبد العزيز بها ، وكانت تفضل في الدرجة الاولى ان توجد لهذه العملية عميلا من المنطقة نفسها . او ان تقوم هي بمناسبة من المناسبات لتثبيت ركيزة تتشبث بها للتدخل في شؤونها .

ولما لم تنجح في جر منصور باشا بن جمعة الى صفها و لم يقبل الاهالي برفع علمها على ساحل (رأس تنورة) عام ١٩٠٥ ! اجرى المكتب الهندي ، كما

يقول بنوا ميشان اتصالات بابن السعود اتاحت له فتح الاحساء .

وكان عبد العزيز سخيا مع بريطانيا عندما عرض عليها ان يمنحها امتيازات خاصة غير محدودة اذا سمحت لاسطولها بالمشاركة ، من هذه الامتيازات اقامة قنصلية في الرياض ، الا ان بريطانيا لم تكن متحمسة للتدخل المكشوف آنذاك ضد الاتراك ولذلك اكتفت بإرسال عملائها للاحساء والقطيف لبث روح الكراهية للاتراك وحرضت التجار النجديين هناك على التبشير بالامن والعدالة اللتين سيحققهما ابن السعود للمواطنين ، وزودتهم بالأموال والتوجيهات كما قامت من جانبها أخيرا بمنع الحامية التركية من العودة لسفنها الى القطيف لاعادة استرجاعها واجبرتها على السفر الى البصرة بحجة تأمين سلامتها .

ولتأكيد رغبة ابن السعود في القيام بمهمة احتلال الاحساء لصالح بريطانيا ، ارسل (مساعد بن سويلم) الى الكابتن « بريدو » الوكيل السياسي في البحرين وعرض عليه امكانية توقيع اتفاقية بينه وبين بريطانيا تتعهد فيها بحمايته على ان يجعل للحكومة البريطانية ممثلا سياسيا في الاحساء والقطيف ، ولكن بريطانيا لم تغير موقفها من ضرورة عدم الظهور على مسرح الاحداث بشكل مكشوف في ذلك الحين .

وقد نبه ابن الرشيد الى هذا المخطط البريطاني منذ مطلع القرن العشرين وانذر الاتراك بما يبيته لهم الانجليز وما ينتظرهم على يد اعوانهم مبارك الصباح وعبد العزيز السعود ، ففي رسالة سرية بتاريخ ١٧ ــ ٦ ــ ١٩٠٢ موجهة من السفير البريطاني في استانبول الى وزير خارجية حكومته يقول :

(لي الشرف ان انقل اليكم طيا رسالة وصلتني سرا وهي موجهة من أمير نجد « عبد العزيز الرشيد » الى رئيس وزراء تركيا يتهم فيها الانجليز بمحاولة السيطرة بمساعدة شيخ الكويت على مواقع عربية تهيمن على المملتكات التركية في الاحساء والقطيف ، وتحذر تركيا من عواقب هذه المكيدة الانجليزية) .

وقد استغل ابن السعود بمساعدة من بريطانيا انشغال تركيا بحربها في البلقان عام ١٩١٢ وزحف الصرب الى سالونيك ، والبلغار الى الآستانة وحراجة موقف الاتراك وحاجتهم الى جميع جنودهم في الجبهة ، فزحف على الاحساء والقطيف واحتلهما في اكتوبر عام ١٩١٣ .

وعندما تم لابن السعود احتلال الاحساء ارسل للسير برسي كوكس المقيم السياسي البريطاني في الخليج بتاريخ ١٣ يونيو ١٩١٣ يبلغه بذلك واضاف قوله

(وبالنظر لمشاعري الودية تجاهكم اود ان تكون علاقاتي معكم كالعلاقات التي كانت قائمة بينكم وبين اسلافي كما اود ان تظل قائمة بيني وبينكم) .

وقد اكدت الوثائق المحفوظة في دار الوثائق البريطانية ، ان بريطانيا هي التي طلبت من عبد العزيز ابن السعود احتلال الاحساء ، حيث ورد في المجلد ٢١٣٩ ما نصه (وردت الى لندن برقية من نائب الملك في الهند جاء فيها يطلب من ابن السعود تعاونه في طرد الاتراك من البصرة لتسيطر عليها حكومة الهند سلميا وطرد الاتراك من الاحساء والقطيف ، وفي مقابل ذلك تعقدون معه معاهدة يعترف فيها باستقلاله حاكما على نجد والاحساء مع ضمان عدم الاعتداء عليه من ناحية البحر) .

وهكذا كانت نتائج احتلال ابن السعود للاحساء والقطيف كما كان يتمناه الانجليز ، فقد تسلمت وزارة الخارجية البريطانية من سفيرها في استانبول يوم ٨ اكتوبر ١٩١٤ مذكرة جاء فيها ما نصه : (أن ابن سعود يحترم موقفنا في الخليج ويحكم في الاحساء بما يرضينا) .

(٣) التمهيد لاحتلال العراق

لقد لعب ابن سعود مع مبارك وخزعل وطالب النقيب دورا بارزا في التمهيد للانزال البريطاني في البصرة وغزو العراق . وقد جاء في الوثائق البريطانية المجلد رقم ٢١٤٠ ما نصه (في ٥ أكتوبر ١٩١٤ وجهت وزارة الهند رسالة الى النقيب شكسبير بان عليه ان يسافر بأسرع فرصة ممكنة ويتصل بابن السعود في الحال ، ويستخدم نفوذه للوصول الى هدفين ، أولهما منع وقوع اضطرابات بين الاوساط العربية نتيجة للاجراءات التي ستقوم بريطانيا باتخاذها في الخليج والاراضي العربية التي تقع تحت النفوذ التركي .. وثانيهما التأكد بأن لا يقدم العرب مساعدة للاتراك اذا ما قامت الحرب بينهم وبين بريطانيا) .

وجاء في وثيقة اخرى في المجلد رقم ٢١٣٩ ما نصه (وصلت الى لندن برقية نائب الملك في الهند جاء فيها ان الخطة التي عرضها شيخ الكويت ، هي أن شيخ الكويت وشيخ المحمرة متعاونان مع بعض وجهاء البصرة الذين لهم اتصالات معهم ، وبمعونة بعيدة من ابن السعود ، فإن في استطاعتهم إما تسهيل احتلال البصرة السلمي .. أو حفظ الموقع هادئا ومعزولا الى ان تتمكن حكومة

الهند من عمل ايجابي) .

وذكر ديكسون في كتابه (الكويت وجاراتها) ان الكابتن شكسبير المقيم السياسي بالكويت قام في تشرين الثاني ١٩١٤ ــ بينما كانت القوات البريطانية لا تزال في (سيهان) تجاه المحمرة ــ بزيارة (السير برسي كوكس) المقيم البريطاني في الخليج و (السير آرثر باريت) في مقر القيادة ، وتلقى منهما الاوامر بالسفر الى نجد لطلب مساعدة ابن السعود ضد الاتراك ، ووعد ابن السعود بان يقدم مساعدات فعالة .

وفي ٢ يناير ١٩١٥ بعث نائب الملك في الهند برقية الى وزارة الهند تعرب عن موقف ابن السعود ، فقد وصل الى المقيم البريطاني في الخليج يوم ٣١ ديسمبر ١٩١٤ رد من ابن السعود يعلن فيه انه في جانب بريطانيا وان من أهم اهدافه تحرير البصرة من حكم الترك .

وجاء في الوثيقة المحفوظة في المجلد ٢٤٧٩ بدار الوثائق البريطانية ما نصه (ان الاخبار الواردة من ابن السعود تقول انه في طريقه لمهاجمة ابن الرشيد ، ويأمل ان يتغلب عليه في آخر يناير ١٩١٥ ، وسيبقى شكسبير معه ، والضمانات التي أعطيت لابن سعود كانت مشروطة بتعاونه مع شيخ الكويت والمحمرة لاحتلال البصرة . وفي حالة فشلهم في ذلك يعملون على منع الامدادات التركية من الوصول الى البصرة) .

وعملا بالتوجيهات البريطانية ، شاغل ابن السعود عام ١٩١٥ ابن الرشيد بهجومه عليه ، ليمنعه من ان يقدم أي عون للاتراك في البصرة . وهذا ما أكده تقرير اللفتينانت كولونيل (جراي) المقيم البريطاني في الكويت ، الذي وجهه الى رئيسه المقيم السياسي في الخليج ، والذي قال فيه (ان نشوب القتال بين ابن الرشيد وبين ابن السعود جعله «ابن الرشيد» هو وقبائله يدافعون عن اوطانهم ولا يستطيعون لذلك معاونة الترك) .

وقد زودت بريطانيا ابن السعود بالمشورة العسكرية خلال الحملة وكان النقيب شكسبير هو المستشار العسكري البريطاني لابن سعود في معركته مع ابن الرشيد ، ويقول ديكسون (ان شكسبير قتل في المعركة وهو يساعد على حشو مدفع نجدي) ، ولو اراد ديكسون كل الحقيقة لقال مدفع انجليزي .

ان هذه الخدمات التي قدمها ابن السعود لبريطانيا خلال انزالها في البصرة وزحفها على العراق ، جعلت (مس بل) بطلة دار الاعتماد البريطاني في بغداد

تقول في كتابها (فصول من تاريخ العراق القريب) : (أثبتت الصداقة الراسخة بيننا وبين أمير نجد أنها شيء لا يُثَمَّن) .

(٤) استئناف مهاجمة ابن الرشيد

كان في صلب المخطط البريطاني لتصفية النفوذ التركي في جزيرة العرب مشاغلة ابن الرشيد .. الحليف الوحيد للاتراك في الجزيرة العربية ، وقد بدأ ابن السعود مشاغلته عام ١٩١٥ ، فأدى ذلك الى الحيلولة بين ابن الرشيد وبين تقديم العون للاتراك في صد الانزال البريطاني في البصرة ، ونجح ابن السعود بذلك في حماية ظهر الانجليز في زحف جنودهم على العراق ، وهذا ما شجع بريطانيا على ترشيح ابن السعود مرة اخرى عام ١٩١٧ لاستئناف مهاجمة ابن الرشيد .

وقد أكد هذه الحقيقة المستر ديكسون عندما قال في كتابه (الكويت وجاراتها) «أن بريطانيا بعثت في سنة ١٩١٧ كلا من الكولونيل هاملتون والكولونيل كانليف أوين ممثلي الاستخبارات البريطانية في العراق ، من البصرة الى نجد ، بقصد اقناع ابن السعود باستئناف التحرشات بابن الرشيد) ، واتفق الطرفان على البدء في المهمة فور وصول الامدادات اللازمة للغزو . وبموجب هذا الاتفاق قدمت بريطانيا لابن السعود جميع ما يلزمه لتحقيق هذه المهمة من أموال وأسلحة ومشورة عسكرية ، وسنتعرض هنا لشيء من ذلك .

أ ــ الاموال

على أثر المحاولات التي أجراها أوين وهاملتون مع عبد العزيز لتنظيم خطة الغزو السعودي لحائل ، تقرر ارسال الاموال اللازمة لذلك ، وقد غادرت بغداد في عام ١٩١٧ بعثة كان من بين أعضائها المستر فيلبي .. تحمل ــ بالاضافة الى التعليمات الاستعمارية ــ مبالغ ضخمة من المال في شكل جنيهات ذهبية وريالات ماريا تريزا لتسليمها الى ابن السعود بغرض تجنيد القبائل ، ونظرا لضخامة هذه الاموال فقد أعدت في صناديق متينة خاصة .

وكان ابن السعود قد أوضح لفيلبي ــ قبل عام ــ استعداده لمهاجمة ابن

الرشيد ، شرط تزويده بما يحتاج من مال ، وسلاح سيما وأن جميع وارداته آنذاك لم تكن لتربو على المائة ألف جنيه ، تضاف لها المنحة السنوية البريطانية التي مقدارها ستون ألف جنيه ، والتي يتقاضاها مقابل عمالته الدائمة .

وذكر خيري حماد في كتابه (عبد الله فيلبي) أن فيلبي سلم ابن السعود مائة ألف ريال ليفيد منها في استكمال اعداداته العسكرية للهجوم على حائل ، مؤكدا له وصول الأسلحة في الوقت المناسب .

وذكر مصطفى الحفناوي في كتابه (ابن السعود) ان عبد العزيز قال (لبلهافن) عندما حرضه على مهاجمة حائل .. (إني مستعد لمهاجمتها بشرط أن تعطوني من المال قدر ما تعطوه للشريف حسين) .

ب ــ الاسلحة

وكما زودت بريطانيا عميلها ابن السعود بالمال .. فقد زودته بالسلاح ، للهجوم على ابن الرشيد . ويظهر ان السلاح البريطاني وصل ابن السعود على دفعات متعددة ، فقد روى فيلبي ان احدى صفقات الاسلحة التي تلقاها عبد العزيز للهجوم على حائل كانت تحتوي على خمسة آلاف بندقية ومائة صندوق ذخيرة .

ج ــ المشورة العسكرية

لقد كان لفيلبي في بلاط ابن السعود عدة مهام منها ان يكون المستشار العسكري بدلا من النقيب شكسبير الذي قتل في معركة (جراب) عام ١٩١٥ . ويقول خيري حماد (أن ابن السعود رفض السماح لفيلبي بالاشتراك في المعركة التي جرت بينه وبين ابن الرشيد ، إستجابة لطلب بريطانيا ، متذكرا ما وقع لشكسبير ، وهكذا فقد أخذ فيلبي يراقب المعركة من شرفة عالية من برج قريب) .

ويجب ان نعرف ان حضور فيلبي في المعركة لم يكن للنزهة ، فاذا لم يكن كذلك فلابد ان يكون حضوره للاشراف عليها والمساعدة على كسبها ، لما لديه من خبرة عسكرية وخبرة بالاسلحة المستعملة فيها ، خصوصا وأنه كان الوسيط

في استحضارها .

(٥) إحتلال الحجاز

في نطاق المخطط البريطاني الذي يستهدف احداث ثورات ومتاعب داخلية تضعف من قوى الاتراك وتشتت جيوشهم وتحرمهم الاستفادة من القوى المحلية لمقاومة الغزو البريطاني للامبراطورية العثمانية ، نشطت المخابرات الانجليزية في استمالة كل الامراء والمشايخ والقبائل العربية في جميع انحاء الامبراطورية الى جانبها بشتى الوسائل والمغريات ، إبتداءاً من الوعد بالحماية ـــ كما كان مع ابن السعود ـــ وانتهاءاً بالتعهد بالمساعدة على تكوين دولة عربية موحدة تضم العرب من جبال طوروس الى الخليج ، كما تعهدت به للشريف حسين بن علي .

وكان أول اتصال رسمي لبريطانيا بالشريف حسين في نهاية سبتمبر عام ١٩١٤ ، وقد اشرف على هذه الاتصالات السير مكماهون المندوب السامي البريطاني في القاهرة ، وكانت مطاليب بريطانيا من الشريف هي اعلان الثورة العربية وطرد الاتراك من الحجاز ومشاركة ابنائه في اخراجهم من سوريا ، وتعهدت له مقابل ذلك بتنصيبه ملكا على دولة عربية تضم العراق وسوريا وفلسطين وجزيرة العرب .

وكان الشريف في مراسلاته مع مكماهون يتردد حينا ويشتط في شروطه حينا آخر ، ويسوف ثالثة ، مما أزعج البريطانيين وحملهم على تكليف عميلهم ابن السعود بالضغط على الشريف ، فكتب الى الشريف يطلب منه (ان يقوم بطرد الاتراك من الحجاز ، واذا لم يتمكن من ذلك فيسير هو « ابن السعود » بجنود كثيفة الى الحجاز ويقوم بعمليات تطردهم) ، وقد نصت على ذلك الوثيقة البريطانية الموجودة في المجلد رقم ٢٤٨٦ بدار الوثائق البريطانية .

وقد أثمر الضغط السعودي ، فأعلن الشريف قبوله التعاون مع بريطانيا بأقل الشروط ، وبدأ التعاون واياها ـــ كما هو معروف في تاريخ الثورة العربية ـــ على أساس المعاهدة البريطانية الحجازية التي عقدت بين الشريف والسير مكماهون . وكان الطرفان قد وقعا على بنودها الخمسة في شهر كانون الثاني من عام ١٩١٦ ، وتنص تلك البنود على ما يلي :

(أولا : تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معاني

الاستقلال في داخليتها وخارجيتها ، وحدودها شرقا الخليج وغربا البحر الاحمر والحدود المصرية والبحر الابيض . وشمالا حدود ولاية حلب والموصل الشمالية الى نهر الفرات ومجتمعة مع الدجلة الى مصبها في الخليج .

وتتعهد الحكومة برعاية المعاهدات والمقاولات التي اجرتها بريطانيا العظمى مع أية شخص كان من العرب في داخل هذه الحدود ، وبأنها تحل محلها من رعاية وصيانة الاتفاقيات مع اربابها ، امراءً كانوا أو من الافراد .

ثانيا : تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أي تدخل كان بأي صورة كانت في داخليتها ، وسلامة حدودها البرية والبحرية من كل تعد أيا كان الشكل ، حتى ولو وقعت فتنة داخلية من دسائس الاعداء أو من حقد بعض الامراء ، وتساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع تلك الفتنة ، وهذه المساعدة في الفتن والثورات تكون مدتها محدودة ، أي الى حين تتم الحكومة العربية تنظيماتها المادية .

ثالثا : تكون ولاية البصرة تحت مشارفة بريطانيا العظمى الى ان تتم الحكومة الجديدة المذكورة تنظيماتها المادية ، ويعين من جانب بريطانيا العظمى في مقابلة تلك المشارفة مبلغ من المال يراعى فيه حالة الحكومة العربية .

رابعا : تتعهد بريطانيا العظمى القيام بكل ما تحتاج اليه ربيبتها الحكومة العربية من الاسلحة والذخائر والمال مدة الحرب .

خامسا : تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين أو من نقطة مناسبة في تلك المنطقة لتخفف وطأة الحرب عن بلاد ليست مستعدة لها) .

ولكن بريطانيا نكصت عن الوفاء بتعهداتها هذه انطلاقا من اتفاقية (سايكس بيكو) التي تقضي بوضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، والتزاما بوعد بلفور بجعل فلسطين وطنا قوميا لليهود . ومن هنا اختلفت الطرق بالشريف حسين وبريطانيا ، حيث أصر الشريف على رفض فكرة الوطن القومي لليهود وضرورة الاحتفاظ بفلسطين ضمن الدولة العربية الموحدة ، وأصرت بريطانيا على تطبيق نظام الانتداب في فلسطين تمهيدا لتحقيق الوطن القومي لليهود .

ويقول فيلبي في هذا الصدد ما نصه (لا الرشوة ولا التهديد قد أثمر في حمل الرجل العجوز «الشريف حسين» على تغيير موقفه المعارض لسياستنا بصورة عامة في جميع ربوع المنطقة) ، وفي النهاية أحس لورنس باليأس وغادر

جدة بعد ان اوصى الحكومة البريطانية بقطع المعونة المالية عن الحجاز والتخلي عن حسين ليقطف ثمار صلابته وعناده .

ومن جراء ذلك تكونت لدى بريطانيا فكرة عامة بالنسبة للشريف حسين عبر عنها فيلبي في تقاريره خلاصتها (ان ابن السعود خير لبريطانيا في تنفيذ سياستها وحماية مصالحها في الوطن العربي ، لانه رجل المستقبل القادر على التنفيذ) .

وقد ذكر محمد لطفي جمعة في كتابه «حياة الشرق» (ان الانجليز قد أعدوا ابن سعود لمحاربة الملك حسين وحركوا عليه الاخوان بعد ان رأوا تشبثه وعناده على الاستقلال ، هؤلاء الاخوان أقاموا في تربة وخرمة ، ويتزعمهم الشريف خالد بن لؤي ، الذي احتل المدينتين)[1] .

وكمحاولة اخيرة لارغام الشريف حسين على القبول بالمخططات البريطانية في الوطن العربي ، قدمت له بريطانيا في ٢١ اكتوبر ١٩٢١ مشروع معاهدة مكونة من ٢١ مادة تتضمن فيما تتضمنه ما يلي :

١ ــ ان يعترف الملك حسين بالادارة البريطانية في فلسطين ، وبالتالي الاعتراف بشرعية وعد بلفور .

٢ ــ ان يعترف الملك حسين بالانتداب البريطاني على العراق .

٣ ــ ان يعترف الملك حسين بمعاهدات الحماية البريطانية مع ابن السعود والادريسي وغيرهما .

٤ ــ ان يعترف الملك حسين بحقوق وامتيازات لبريطانيا في الحجاز تحد من استقلاله وتجعل المعاهدة شكلا من أشكال التبعية .

٥ ــ ان يعترف الملك حسين بالاتفاقيات البريطانية الدولية . وهذا يعني الاعتراف بشرعية « اتفاقية سايكس بيكو » ، التي تجعل سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي .

وقد رفض الشريف حسين التوقيع على هذه المعاهدة ، وأصبح التلاقي بين وجهتي النظر العربية والبريطانية متعذرا .

ويقول الدكتور صلاح العقاد في كتابه « جزيرة العرب في العصر الحديث » ما نصه (والحق ان معارضته الوطن القومي اليهودي في فلسطين وما ترتب على ذلك من رفض توقيع معاهدة فرساي ، كان من أقوى الاسباب التي باعدت بين الشريف حسين وبين الحكومة البريطانية) .

وقد نصح فيلبي في بداية الامر حكومته البريطانية بأن تقوية ابن السعود ضرورية لخدمة السياسة البريطانية ليقف في وجه الملك حسين الذي بدأ يتصلب في مواقفه معها بصدد مستقبل البلاد العربية بصورة عامة وفلسطين بصورة خاصة .

و (تقوية ابن سعود) تعني هنا امداده بالسلاح والمال والمخططات العسكرية التي تساعده على مهاجمة الحجاز والقضاء على الشريف حسين ، الذي يقف في وجه تمرير المخططات الاستعمارية والصهيونية آنذاك .

وفعلا قدمت بريطانيا لعبد العزيز جميع المساعدات المطلوبة وكانت كما يلي :

أ ــ العمل على خلق طابور خامس في الحجاز يتآمر على حكم الملك حسين ويبشر بسلطان ابن السعود . وكان على رأس هذا الطابور بعض الاسر ذات النفوذ المالي الكبير في الحجاز والارتباطات المشبوهة بالشركات البريطانية في الهند ولندن .

ب ــ تكوين جهاز ضخم للتجسس على الملك حسين وعلى الاوضاع العسكرية في الحجاز ، وقد تولت السفارة البريطانية في جدة ادارة هذا الجهاز وعلى رأسها المستر جلبرت السفير البريطاني . وشارك فيلبي ــ الذي كان يقيم في تلك الفترة بجدة خصيصا لهذا الغرض ــ في ايصال المعلومات السرية عن المخططات والقوات الحجازية الى ابن السعود أولا بأول .

ج ــ العمل على تثبيط عزم الملك حسين وابنه الملك علي من بعده عن الاستمرار في القتال وجرهما الى الاعتماد على الوساطة البريطانية ، في الوقت الذي كان الانجليز فيه يعززون القوات السعودية ويدفعونها للاسراع بالزحف على مدن الحجاز .

د ــ العمل على شل حركة الطيران الحجازي الذي كان يعتبر عامل تفوق لجيش الشريف ، ولم تتوقف بريطانيا عن تخريبه ومنعه من المشاركة في القتال .

هـ ــ استصدار فتاوى شرعية من عملاء المخابرات البريطانية المتزيين بزي رجال الدين لصالح ابن السعود . وقد أكد ذلك الدكتور حسن العطار في كتابه (الوطن العربي) بما نصه (قام ابن السعود بالهجوم على الحجاز وشجعه على ذلك رجال الدين في جدة وحصوله على فتاوى من البلاد الاسلامية الخاضعة تحت الانتداب البريطاني وبمساعدة الانجليز) .

وفي شهر آب ١٩٢٤ بدأ عبد العزيز زحفه على الحجاز ، وفي ١٧ ديسمبر

١٩٢٥ تم استسلام جدة بواسطة السفارة البريطانية هناك .

وهكذا حقق ابن السعود لبريطانيا اسقاط آخر وثيقة تلزمها بقيام الدولة العربية التي تعهدت بها ، وإسكات آخر معارضة مسندة باعتراف بريطاني لقيام وطن قومي لليهود في فلسطين ، ان انهاء الدولة الشريفية في الحجاز قد ألقى عن عاتق بريطانيا عبئين ، عبء الالتزام بقيام دولة عربية كبرى .. وعبء الالتزام بكون فلسطين ضمن الدولة العربية ، وان إسقاط الملك حسين ولو من الناحية الشكلية قد اطلق يد بريطانيا في تقسيم البلاد العربية وتسليم فلسطين للصهاينة ، وهو أمر لم يحظ بشرف القيام به سوى ابن السعود .

(٦) الضغط على البلاد العربية للاستجابة للمطاليب البريطانية

من بين المهام التي تبنى عبد العزيز تنفيذها لصالح المخططات البريطانية ، هو تهديد البلاد العربية المجاورة او الضغط عليها لغرض اضطرارها للخضوع للمطالب البريطانية التي تحاول التمرد عليها . ولابن السعود عدد من المواقف غير المشرفة في هذا السبيل ، نذكر منها ما يلي :

أ ــ ذكر السيد عبد الرزاق الحسني في كتابه « تاريخ الوزارات العراقية » ، انه لما يئس الانجليز من حمل العراقيين عام ١٩٢٢ على قبول الانتداب البريطاني ، بالضغوط والتهديدات والارهاب الداخلي ، ارادوا ان يفهموا الشعب العراقي بانه لا غنى له عن حماية بريطانية في درء الاخطار الخارجية ، فاوعزوا لابن السعود بارسال غزاته للاغارة على اطراف المنتفك ليلة ١١ مارس ١٩٢٢ ، وقد طالب عدد من اعضاء الوزارة العراقية آنذاك انجلترا بردع ابن السعود عن التدخل في الاراضي العراقية ، ولما تجاهلت بريطانيا طلبهم هذا إستقالوا ، فادى ذلك الى انتشار روح التذمر من بريطانيا ، وهدد بثورة خطيرة ، مما اضطرها الى الاسراع بعقد مؤتمر المحمرة الذي وضعت فيه الخطوط الاولى لاتفاقية الحدود ومنع الغارات وغيرها .

ب ــ هاجم ابن السعود اليمن عام ١٩٣٣ ليشغل الامام يحيى حميد الدين عن المطالبة بانضمام عدن الى اليمن الام والغاء نظام الانتداب البريطاني الذي فرضه الانجليز عليها بالقوة .

العلاقة التركية السعودية

كما خططت بريطانيا لابن سعود احتلال الاحساء والقطيف ، فقد وقتت له هذا الاحتلال وحددته ، في الوقت الذي كانت فيه الدولة التركية تحشد كل جيوشها وطاقاتها العسكرية لصد الزحوف المتوالية عليها في البلقان ، وفي الوقت الذي تتعرض فيه سالونيك والآستانة للسقوط في يد الصرب والبلغار .

وقد فاجأ ابن السعود تركيا باحداث لم تكن لتنتظرها في الخليج ، ولم تكن في حال تمكنها من استعادة سلطتها الفعلية على منطقة الاحساء . وبخبرتها الطويلة لاساليب الاستعمار البريطاني .. عرفت ان الدور الذي لعبه ابن السعود كان معدا في دوائر المخابرات البريطانية ، ولكي تفوت على بريطانيا بعض اهدافها .. اضطرت تركيا للموافقة على الدخول مع ابن السعود في مفاوضات ، قبل بموجبها الاعتراف لتركيا بالسيادة الاسمية ، وان يكون حاكما على المنطقة نيابة عنها . ولكن ابن السعود ظل يناور ويداور ، وكان يوافق على المطالب التركية ولا يقيد نفسه بها من الناحية العملية .. وذلك كسبا للوقت وانتظارا لتقوية مركزه في المنطقة ، وتحسبا للاوضاع الدولية التي كانت تتمخض بها السياسة الدولية ، وفي مقدمتها السياسة البريطانية .

وقد وافقت تركيا في اوائل عام ١٩١٤ على الاعتراف بابن السعود واليا على نجد ومتصرفا للاحساء ، وبدأت تلقبه بصاحب الدولة . ولكن ابن السعود لم يكن يعنيه أي اعتراف تركي .. بقدر ما تعنيه علاقاته مع بريطانيا .

وعندما هاجم الانجليز العراق ، افتى علماء المسلمين بوجوب الجهاد الى جانب تركيا لحماية الارض الاسلامية ، ولكن ابن السعود خالف اجماع المسلمين ، ولم يكتف بالتقاعس عن الجهاد .. بل انضم الى الدول الاستعمارية وشاغل ابن الرشيد بالحرب ليمنعه من المشاركة في الجهاد الى جانب تركيا ، كما اوضحنا ذلك سابقا .

وكان انور باشا قد طلب من ابن السعود باسم الدولة التركية حسب اتفاقه

مع تركيا بالاشتراك في الدفاع عن البصرة ، فاجابه عبد العزيز بانه مشغول بمحاربة ابن الرشيد ، وسوف يواصلها الى ان يخضعه تحت حكمه .

وقد شهدت لابن السعود ثلاث وثائق بريطانية بهذا الموقف المخزي والمتآمر لصالح دولة استعمارية ، فقد جاء في الوثيقة الاولى المحفوظة في المجلد ٢٤٧٩ بدار الوثائق البريطانية ما نصه : (في يوم ٣١ يناير ١٩١٥ كتبت وزارة الهند للخارجية البريطانية ان موقف ابن السعود الحالي سليم بالنسبة لبريطانيا ، لانه لم يف بالتزاماته لتركيا بموجب معاهدته معهم بإرسال قوات مسلحة لمساعدتهم ، بل انه منع ابن الرشيد من مساعدته لهم) . ونصت الوثيقة الثانية المحفوظة في المجلد رقم ٢٤٤٦على : (أن امتناع ابن الرشيد في الوقت المناسب عن مساعدة الترك ، يعزى الفضل فيه لابن سعود ، الذي قدم مساعدة بطريق غير مباشرة ، فقد رفض الدعوات المتكررة عليه من الترك لاعلان الجهاد والانضمام لجانب تركيا ، وفي الوقت نفسه اعتذر بانه يجب ان يصفي حسابه مع ابن الرشيد ، وان نشوب القتال بين ابن الرشيد وابن سعود قد جعل ابن الرشيد وقبائله يدافعون عن أوطانهم ولا يستطيعون لذلك معاونة الاتراك) . اما الوثيقة الثالثة وهي المحفوظة في المجلد رقم ٢٤٧٩ فتنص على : (أن عبد الله بن جلوى كتب لشكسبير رسالته بتاريخ ٤ نوفمبر ١٩١٤ ، وارفق بها خلاصة كتاب من عبد العزيز جاء فيه ما نصه « أعلنا الحرب على ابن الرشيد لسببين ، أولهما لنحول بينه وبين مساعدة الاتراك في سوريا ، وثانيهما ليكون لنا عذر من عدم مساعدتهم والانصياع لامرهم ، وظلت رسلهم تتوافد علي للصلح بيني وبين ابن الرشيد .. وظللت ابدي المعاذير ، وعليه فقد غادرت الرياض الى منطقة القصيم لتدبير الامر وتكملة الاعذار ») .

وهكذا ، نجد ابن السعود يناقض ما يتظاهر به من التمسك بالدين ، وينقض تعهده للاتراك بمساعدتهم ، ويتنكر للسيادة التركية التي وافق عليها وانحاز الى اعدائهم الانجليز .

ويحسن بنا ان نختتم هذا الفصل بشهادة (المستر كينث توماس) التي جاء فيها ما نصه (بقي الملك عبد العزيز حليفا دائما لبريطانيا ، وعاضد البريطانيين وحلفائهم ، ودرب جيشا اشترك في العمليات الحربية ضد الاتراك سنتي ١٩١٤ و ١٩١٥) .

مواقف الحكم السعودي المنحازة لبريطانيا

إن مواقف الحكم السعودي من قضايا التحرر الوطني والعربي والاسلامي واحدة لا تختلف ، فكلما كانت القضية الاسلامية أو العربية او الوطنية في جانب .. وكان الانجليز في الجانب المضاد ، إنضم الحكم السعودي الى الجانب الانجليزي واتخذ موقفا منسجما مع مصالحه ، ولو على حساب القضايا الوطنية والعربية والاسلامية ، وللبرهان على ثبوت هذا الموقف الدائم الذي يتنافى مع المسؤولية الوطنية والكرامة العربية والواجبات الاسلامية .. نورد الوقائع التالية :

(١) في المجال الاسلامي :

أ ــ عندما انعقد المؤتمر الاسلامي الذي وعد به الملك عبد العزيز عام ١٩٢٦ للنظر في الاسلوب الذي سوف يحكم به الحجاز ، طرحت الوفود الاسلامية قرارا يدعو الى تطهير البلاد العربية من الحكم الاجنبي ، على أساس أن يشتمل ذلك فلسطين والشام والعراق وسواحل الجزيرة العربية ، ولكن عبد العزيز احتج على هذا المشروع وأصر على حذفه من جدول الاعمال .

وبهذه المعارضة حال عبد العزيز دون مناقشة قضية فلسطين وتجنيد الرأي العام الاسلامي في ذلك الوقت المبكر ، وكان الامل كبيرا في ان يؤدي اتخاذ قرار ايجابي بشأن فلسطين ــ يوقعه مندوبو الهند ومصر وغيرها من البلاد التي لبريطانيا فيها مصالح كبيرة ــ الى الضغط على بريطانيا قبل ازدياد تورطها في تنفيذ وعد بلفور ، ولكن عبد العزيز تصرف وفق منطق عمالته لبريطانيا ، فرفض ان يبحث أي موضوع يتصل باستعمارها .. ولو كان لفلسطين .

ب ــ ذكر الزركلي في كتابه (شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز) ان ابن السعود ارسل للشريف عبد الله بن الحسين بتاريخ ١٤ اكتوبر ١٩١٦ رسالة جاء فيها :

(ان كل انسان فيه حمية ودين وعربية انه يجتهد في جهاد الاتراك وحلفائهم ، لان اليوم والله ما اخبر عدو للاسلام والعرب غيرهم) .

ان ابن السعود لم ير في الانجليز عدوا للعرب والاسلام ، ولذلك لم يكن في نظره من عدو لهما سوى الاتراك وحدهم . هذا هو تقدير عبد العزيز الذي يدعي ان الاسلام دين دولته وان القرآن دستورها ، ثم يتحالف مع الانجليز ضد المقدسات والبلاد الاسلامية .

(٢) في المجال العربي :

أ ــ لم يتوان ابن السعود عن معارضة قيام وحدة عربية في أي شكل من أشكالها ، وكانت معارضته دائما مرتبطة بمعارضة بريطانيا لها ، وقد ذكر حافظ وهبة .. السفير السعودي ، في كتابه (خمسون عاما في جزيرة العرب) ، انه تلقى من الملك عبد العزيز برقية بطريق الشفرة الخاصة ما نصه (ان نوري السعيد يريد الحاق سوريا وفلسطين بالعراق ، وهذا يتوقف على الحكومة البريطانية ، فإن كل أمر لا توافق عليه الحكومة البريطانية لا يتم . ونحن مستعدون ان نتعاون مع بريطانيا ونحافظ على مصالحها) .

وهذا الكلام صريح في ان ابن السعود يعارض ضم سوريا وفلسطين الى العراق ، ويترك سوريا بيد الفرنسيين .. وفلسطين عرضة لاستيلاء اليهود عليها ، ما دام الانجليز لهم مصلحة في عدم ضمها . واكثر من ذلك ، يهتم بالتعاون مع بريطانيا ويحافظ على مصالحها .. بدلا من التعاون مع العراق لانقاذ سوريا من الاستعمار الفرنسي ، وانقاذ فلسطين من الاستيطان الصهيوني .

ب ــ أثناء ثورة العراق عام ١٩٤١ على الانزال البريطاني في البصرة ، قابل المرحوم ناجي السويدي وزير خارجية العراق ــ آنذاك ــ ، الملك عبد العزيز وطلب منه باسم العراق الوقوف الى جانبه في ثورته ، ولكن عبد العزيز رفض ان يقدم للعراق حتى كلمة تمن طيبة ، وندد بالثورة العربية ضد الانجليز . وقد روى السفير السعودي خير الدين الزركلي ان عبد العزيز اعتذر عن مساعدة الثورة العراقية عام ١٩٤١ بأنه (صديق لبريطانيا وانه ورث هذه الصداقة عن جده فيصل بن تركي) .

(٣) في المجال الوطني :

أما في المجال الوطني ، فمواقف الحكم السعودي الخيانية كثيرة ، تأتي في مقدمتها معاهدة الحماية التي عقدها عبد العزيز مع بريطانيا في ٢٦ ــ ١٢ ــ ١٩١٥ ، وسيأتي الحديث عنها مفصلا في مكانه من هذه الدراسة .

بريطانيا تعد إبن سعود لمهام كبرى في العالم العربي وتعمل على توسيع نفوذه

لقد أثبت عبد العزيز للمخابرات البريطانية انضباطية فائقة في تنفيذ تعليماتها في جميع الظروف والاحوال ، وكان عبد العزيز يفتخر بهذه الانضباطية وينوه بها ، فمن ذلك قوله في عام ١٩٤٧ لابنه سعود (اننا منذ نشأنا كنا ـــ ولا نزال ـــ اصدقاء اوفياء لبريطانيا ، والحق أنه بالرغم من حصول ظروف ومناسبات خلال سنوات طويلة اضطررنا فيها الى مجابهة مشكلات ومتاعب عديدة .. فإن االخطوط الاساسية لسياسة الفريق الواحد تجاه الفريق الآخر ظلت ثابتة وطيدة ، وقد خبرنا الانجليز وهم خبرونا .. وعرفناهم وهم عرفونا ، ولذلك اصبح العمل فيما بيننا سهلا والتفاهم هينا ، ويعلم الجميع الموقف الودي الصادق الذي اتخذناه تجاه بريطانيا ايام محنتها في الحرب الاخيرة ، وكيف اننا لم نتخل عن صداقتنا معها في الوقت الذي تركها فيه ادنى الناس اليها ، وهذا الموقف الرائع الذي وقفناه هو الذي ادى بالحكومة البريطانية الى الاعتراف بانها لن تنسى لنا موقفنا هذا في ايامها السوداء ، اننا اصدقاء اوفياء لبريطانيا .. ولم نجد منها اجمالا الا الصداقة) .

اما رأي بريطانيا في ابن السعود فيلخصه المستر فيلبي في قوله (ان ابن السعود خير لبريطانيا في تنفيذ سياستها وحماية مصالحها في الوطن العربي ، لانه رجل المستقبل القادر على التنفيذ) .

وانطلاقا من هذه القناعة التي تكونت لدى بريطانيا عن اهمية ابن السعود واصلحيته لتنفيذ مخططاتها الاستعمارية في الوطن العربي ، فقد فكرت زمنا في ان ترفعه الى قمة الزعامة العربية ، لتضمن بواسطته تسهيل عملياتها الاستعمارية في المشرق العربي كله ، واذا كانت هذه الفكرة لم تأخذ طريقها الى حيز التنفيذ .. فمرد ذلك الى عدة عوامل ، منها تطور الاحداث السياسية بعد الحرب العالمية الثانية ، وظهور عملاء آخرين على الساحة أمكن بواسطتهم السيطرة على البلاد

العربية مجزأة ، بدلا من السيطرة عليها وهي موحدة ، لان هذه الوحدة ـــ مهما كان نوعها ـــ ، يمكن ان تصبح تحت قيادة اخرى غير قيادة الاسرة السعودية ، خطرا على المصالح الاستعمارية . ونحن هنا نورد بعض المخططات التي فكرت بها بريطانيا بشأن وضع ابن السعود في قمة الزعامة العربية ، وتوسيع نفوذه :

١ ـــ ذكر المستر (فيليب ايرلند) المؤلف الامريكي في كتابه (العراق : دراسة في تطويره) انه اقترح عدداً من الاشخاص لتولي منصب ملك العراق ، كان بينهم عبد العزيز بن سعود . وبديهي ان هذا الاقتراح لا يمكن ان يطرح الا من قبل بريطانيا ، لان العراقيين لم يكنوا للاسرة السعودية في يوم من الايام اي حب واحترام ، وكانت العلاقات بين العراقيين وحكام آل سعود على النقيض من ذلك .

٢ ـــ ذكر خيري حماد ان فيلبي اقترح ان يسلم العراق الى احد الامراء السعوديين ، وهذا يعني حكمه من قبل عبد العزيز بشكل مباشر او غير مباشر .

٣ ـــ كذلك اقترح فيلبي ضم الكويت الى ممتلكات ابن السعود ، واذا لم يتم ضم كل الكويت .. فقد منح المستر برسي وكوكس في اتفاقية عام ١٩٢٢ ثلثي الاراضي الكويتية لابن سعود ، وبتعبير اخر .. منحه ثلثي نفط الكويت .

٤ ـــ أكد فيلبي انه لو عاش شكسبير لكان الموجه للثورة العربية بدلا من لورنس ، ولكان ابن السعود هو الذي قام بها بحافز من حكومة الهند ، بدلا من الملك حسين .

٥ ـــ قال السفير السعودي حافظ وهبة في كتابه (خمسون عاما في جزيرة العرب) ما نصه :

(سمعت من السير فيروزنون وبعض اصدقاء تشرشل ان تشرشل ينوي بعد الحرب العالمية الثانية ان يكون من الشرق العربي مجموعة حكومات فيدرالية يكون ابن السعود رئيسا لها ، وقد اشار وايزمن في مذكراته صفحة ٥٢٤ وما بعدها الى ذلك) .

وتحدث حايم وايزمن اول رئيس لاسرائيل في كتابه (التجربة والخطأ) عن ذلك فقال (دخلت على المستر تشرشل فبادرني قائلا : اريد منك ان تعرف اني قد اعدت ترتيبا خاصا لا يمكنني ان اقدم على تنفيذه الا بعد ان تضع الحرب اوزارها بصورة نهائية ، فانا اريد ان اجعل من ابن السعود سيد الشرق الاوسط كافة .. ورئيس الرؤساء ، بشرط واحد وهو ان يجري تسوية معكم ، وسيترتب

عليكم ان تحصلوا منه على احسن ما يمكنكم من الشروط ، وبالطبع نحن سنساعدكم ، فليكن حديثنا هذا في طي الكتمان ، ولكن في وسعك ان تبحث الموضوع مع روزفلت عندما تصل لامريكا . وبعد اشهر قابلت سانت جون فيلبي فقال لي اني اعتقد ان قضيتكم لا يمكن حلها الا بشرطين ، اولهما ان يقوم المستر تشرشل والرئيس روزفلت بابلاغ ابن السعود رغبتهما في تنفيذ برنامجكم ، وثانيهما ان يؤيدا سيادته على البلاد العربية ، وان يقدما له قرضا يمكنه من إعمار بلاده) .

وقد أيد فيلبي هذا الحديث ، وذكر خيري حماد ان تشرشل لم يكذب ما جاء في كتاب وايزمن ، كما ان الدور الذي كان يلعبه فيلبي علنا في قضية فلسطين حملت السيد موسى العلمي مندوب الهيئة العليا لفلسطين على تقديم احتجاج الى الملك عبد العزيز ، يذكر فيه ان تأييد فيلبي العلني لمشروع تقسيم فلسطين يمكن ان يفسر على أنه تعبير عن راي الملك عبد العزيز نفسه .

ان الدلائل تشير الى ان عبد العزيز قبل الصفقة ، وترك لفيلبي ترويج الفكرة ، ولكن انتهاء الحرب العالمية الثانية وبروز امريكا كمنافس لبريطانيا في الشرق العربي ، وسيطرتها الكلية على السعودية ، ووجود منافس لابن السعود على الصفقة بابخس الاثمان ، وقناعة المنافس بأن يكون ملكا على صحراء الاردن وجزء صغير من فلسطين .. بدلا من ان يكون ابن السعود ـــ الذي اصبحت تراهن عليه امريكا ـــ ملكا على العرب بأجمعهم ، كل ذلك قلب الخطة رأسا على عقب .

على ان امريكا لم تنفض يدها من المشروع كله ، باعتبارها الوارث الطبيعي للاستعمار البريطاني ، فقد اخذت ـــ وبعد عشرين عاما ـــ تراهن على حصانها الجديد في البلاد العربية والاسلامية ، وكان هذا الحصان فيصل بن عبد العزيز ، الذي ورث بدوره مسيرة أبيه في خدمة الاستعمار ، فأبرزته امريكا على مسرح الاحداث ، وقدمته كعامل مؤثر في اوضاع المنطقة العربية والاسلامية ، سواءا على مستوى الحكومات الرجعية او الانهزامية .

وقد قدمت امريكا لفيصل التأييد الكامل في شكل مخططات مرسومة للتآمر على القوى الوطنية والثورية ، وفي شكل زيادة خيالية في انتاج الزيت وتكثيف عائداته ، ليعمل بها فيصل على شراء الضمائر وشل قدرات الامة العربية عن كفاح الاستعمار والصهيونية ، ولتسليم اكبر ما يمكن تسليمه من الارض العربية

للصهيونية ، وجر الدول العربية مرغمة ــ تحت اذلال الدولار ــ للمعسكر الامريكي .

معاهدة دارين عام ١٩١٥

كانت علاقة عبد العزيز بن السعود ببريطانيا عن طريق مبارك الصباح ، وكان عبد العزيز يرى في هذه الوساطة انتقاصا من منزلته ، وانه بذلك اقل شأنا من سائر امراء الساحل السائرين في ركاب بريطانيا ، والذين تشدهم بها معاهدات الحماية . ولذلك ظل ابن السعود يطمح الى ان تكون له علاقة مباشرة ببريطانيا ، وان تكون هذه العلاقة بمستوى علاقات امراء الكويت والبحرين وقطر ، وان يرتبط مع بريطانيا بمعاهدة حماية مماثلة .

ولكن بريطانيا كانت تخشى ان تجاهر الدولة العثمانية بهذه العلاقة حفاظا على الامتيازات والعلاقات الخاصة التي تتمتع بها في الامبراطورية العثمانية ، وبالرغم من ان ابن السعود كرر مطالبته بعقد معاهدة حماية في عام ١٩٠٢ وعام ١٩٠٤ ، فإن بريطانيا لم تستجب له ، وفي سنة ١٩٠٦ تقدم بعروضه هذه ثلاث مرات الى المقيم السياسي البريطاني السير برسي كوكس ، حمل احداها رسول خاص ، وتوسط في ثانيتها شيخ قطر ، وتولى الوساطة في ثالثتها شيخ الكويت ، وكان يرغب فيما اذا قبلت بريطانيا طلبه بوجود معتمد سياسي بريطاني في الرياض ، وأن يقيم ارتباطات شبيهة بتلك التي تربط الشيوخ المتصالحين المتعلقة بعدم التفريط بأي ارض الى دولة اخرى غير بريطانيا ، ويقبل بسيطرتها على شؤون بلاده الخارجية .

ولم توافق بريطانيا على تشريف ابن السعود ورفعه الى مستوى شيوخ المحميات ، وعقد معاهدة حماية معه ، الا في عام ١٩١٤ ، عندما قررت انهاء علاقاتها بتركيا واعلان الحرب ضدها وانزال جيشها في البصرة . وكانت موافقتها على عقد معاهدة الحماية هذه بقصد حماية ظهرها في الخليج ، ومنع الامدادات ان تصل من الجزيرة العربية الى الاتراك في العراق ـــ استجابة لدعوة الجهاد ـــ ، هذا بالاضافة الى ان عامل المصانعة للدولة التركية حفاظا على المصالح البريطانية في اراضيها قد زال باعلان الحرب بين الدولتين .

وقد تولت حكومة الهند ومبارك الصباح التمهيد لعقد المعاهدة ، واشرفت على اتمامها دوائر الاستخبارات البريطانية في الخليج ، التي يرأسها السير برسي كوكس ، ويحسن بنا ان نتابع خطوات هذه المعاهدة في جميع مراحلها :

في يوم ٤ اكتوبر ١٩١٤ ، قبل الانزال البريطاني في البصرة بتاريخ ٦ ــ ١١ ــ ١٩١٤ ، بعثت وزارة الهند في لندن الى المقيم البريطاني في بوشهر برقية تحوي رسالة لابن السعود لترسل عن طريق الكويت والبحرين هذا مضمونها :

سيغادر صديقك الكابتن شكسبير انجلترا متجها نحوك لمقابلتك في امور هامة منتدبا من الحكومة البريطانية عن طريق البحرين ، ويرجو ان تجهز له الجمال في العقير حوالي ٤ نوفمبر .

وفي يوم ٨ اكتوبر أبرقت وزارة الهند الى نائب الملك قبل وصول شكسبير ، ان ينقل لابن سعود عن طريق شيخ الكويت فحوى رسالة تضمنت ما يلي : (يعلم الشيخ ان المانيا الآن تستخدم نفوذها على تركيا لتقوم بأعمال عدائية تضطر بريطانيا وحلفاءها لخوض غمار حرب يودون تفاديها ، وحكومة جلالة الملك وهي مضطرة لاتخاذ احتياطات عسكرية في الخليج .. فهي تبعث الكابتن شكسبير ليقوم بشرح نواياها) .

وفي يوم ١٤ اكتوبر ١٩١٤ ، كتب الشيخ مبارك الصباح لابن سعود ينقل له ملخصا لمهمة شكسبير حسبما وصلته من حكومة الهند ، ويقول له بعد ذلك (قابله ورحب به وارض ربك وسلمه اجابة تسره ، لان طريقنا للراحة والسعادة لكلينا واحد يا ولدي .. وهو في اتباع نصائحهم ، وابعث في الحال لعبد الله بن جلوى لتجهيز ترحيله في العقير) .

وفي يوم ٢٤ اكتوبر ١٩١٤ كتب عبد العزيز لشكسبير يحيله الى عبد الله بن جلوى امير الاحساء ، لانه يعرف خططه ، ويرجو ان تكون اتصالاته مع ابن جلوى مستمرة .

وفي يوم ٤ نوفمبر ١٩١٤ كتب ابن جلوى خطابا لشكسبير ينقل له فيه تعليمات ابن السعود ، وهذا نصها : (عندما علمت من القنصل بالخليج انك قادم ، رأيت ان اقترح عليك امرين لتختار واحدهما ، ولكن الافضل في نظري ان تجهز شفرة عربية ترسل الي مفتاحها لتكون المخاطبات بيننا بها عن طريق اخينا عبد الله بن جلوى في الاحساء ، بينما تظل انت مقيما في البحرين ، وذلك

اتقاءا للقيل والقال ، حذرين الى حين وصولنا الى نتيجة ، فهذه افضل طريقة بالنسبة لنا ولصالحنا ، اما اذا رأيت انه لابد من المقابلة .. فان ابن جلوى يقوم بهذه المهمة ، ولكن يجب ان يكون ميعاد سفرك سرا .. ولا يستطيع ان يعرف احد اتجاهك .. وتلبس الملابس العربية) .

وتسلم شكسبير الخطاب وكتب الى عبد العزيز رده في يوم ٨ نوفمبر ١٩١٤ ، بخطاب يقول فيه (انه وصل البحرين وتلقى خطاب الامير وكذلك خطاب الصديق ابن جلوي وفهم مضمونه ، فالمقابلة الشخصية ضرورية لشكسبير ، خاصة وانه ليس لديه شفرة عربية ، وليس باستطاعته عملها الآن ، وانه سيغادر البحرين الى الكويت ليكون قريبا من الاتصال المباشر ، وعليه .. فهو يرى ان يرد عبد العزيز عليه في الكويت بالوقت وبالمكان الذي يود مقابلته فيه) . وردا على اشارة عبد العزيز بأن يلبس الملابس العربية يقول شكسبير بانه يستحيل عليه ذلك لانه ممثل رسمي لحكومة بريطانيا ، ولا يجدر به ان يتخفى .

وفي يوم ٢٠ نوفمبر ١٩١٤ ، كتب شكسبير من الكويت للمقيم البريطاني في (بوشهر) انه سافر الى شط العرب ليبحث مع (السير برسي كوكس) آخر تطورات الموقف عن ابن السعود ، والاسس التي يتطلب تعاونه عليها .

وفي يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٤ ابرق نائب الملك في الهند الى وزارة الهند في لندن فحوى برقية وصلته من كوكس بتاريخ ١٦ ديسمبر ١٩١٤ تقول : (حضر رسول برسالة مرضية للغاية من ابن السعود .. تاريخها ٤ ديسمبر من عنيزة ، بخصوص اتصالاتنا الاخيرة يقول فيها « ان رغبته ذات التاريخ الطويل في اقامة علاقات ودية مع الحكومة البريطانية لا تتزعزع ، وانه كتب لشكسبير لتحديد مكان الاجتماع ») .

وفي ٢ يناير ١٩١٥ بعث نائب الملك في الهند برقية الى وزارة الهند تخبر عن موقف ابن السعود ، فقد وصل الى المقيم البريطاني في الخليج يوم ٣١ ديسمبر ١٩١٤ ، رد من ابن السعود للمقيم يعلن فيه انه في جانب بريطانيا ، وانه سوف يسافر للكويت لبحث الوعود الثلاثة وهي : الحماية من ناحية البحر ، والاعتراف ، وعقد معاهدة .

وفي يوم ٢٩ يناير ١٩١٥ أبرق نائب الملك في الهند الى وزارة الهند في لندن قائلا ان ابن السعود بعث بمذكرة مبدئية لتكون موضوع نقاش المعاهدة

المرتقبة ، وتحوي مقترحاته تفصيلات تثير بعض العقبات ، وتستدعي التفكير بروية ، لانها تشمل تحديد الحدود والقانون والسلطات القانونية وايواء اللاجئين والمعاملات المتبادلة للرعايا وحركة السلاح وتسهيلاتها ، وتعتبر حكومة الهند عقد معاهدة في اسرع وقت امرا بالغ الاهمية في الوقت الحاضر ، ويجب ان تكون على اسس عامة . وتقترح حكومة الهند ما يلي :

١ ــ ان تعترف الحكومة البريطانية بابن سعود حاكما مستقلا لنجد والاحساء والقطيف ، وتضمن الحكم الوراثي في عائلته شريطة ان تقبل القبائل بالحاكم الجديد وتصادق عليه حكومة جلالة الملك .

٢ ــ تساعد الحكومة البريطانية ابن سعود الى المدى وبالطريقة التي يستدعيها الموقف في حالة تعرضه لاعتداء من جانب أي قوة اجنبية بدون مبرر او اثارة .

٣ ــ وفي مقابل ذلك يتعهد ابن سعود بأن لا يتعامل مع أي دولة اجنبية ، أو يمنح أي امتيازات لرعايا اي دولة أجنبية ، الا بنصيحة الحكومة البريطانية ، وفي هذه الحالة يجب عليه ان يتبع هذه النصيحة بدون اي تحفظ .

٤ ــ يوافق الطرفان على عقد معاهدة تفصيلية بمجرد ان تتم الموافقة على هذه الخطوط العريضة ، حيث تشمل التفصيلات المسائل الاخرى التي تمس مصالحها .

ويقول نائب الملك في الهند ان كوكس يوافق على معاهدة مبدئية على هذه الاسس تناسب الحالة ، وسيوضح لابن سعود انه من المستحيل في الوقت الحاضر الاستغناء عن فصيلة من الجند لمساعدته خاصة .

وفي الختام يطلب نائب الملك في الهند اجابة في وقت مبكر .

وفي يوم ٣١ يناير ١٩١٥ أبرقت وزارة الهند لنائب الملك بموافقتها على مقترحات المعاهدة مع ابن سعود .. مع الملاحظات التالية :

١ ــ ضمان الحكم للعائلة يجب ان توافق عليه القبائل ما أمكن ذلك .

٢ ــ يجب ان تتوقع ان يطلب شيخ الكويت ضمانا مماثلا ، طالما ان كلا من ابن السعود وشيخ المحمرة حصل على ذلك .

٣ ــ البند الخاص بالاعتداء الخارجي دون مبرر أو اثارة ، يجب ان يصاغ بطريقة تجعل الحكومة البريطانية الحكم في طبيعته ومدى المساعدة .

٤ ــ النظر فيما اذا كانت المعاهدة تحوي بندا يلزم ابن السعود عدم التدخل

في الكويت والبحرين وقطر وزعماء الامارات المتصالحة الى ان يحين الوقت لتحديد الحدود ، ولكن يترك الامر لنائب الملك يتصرف بما يراه .

ولابد ان ترسل وزارة الهند للخارجية ما تم في أمر اجراءات وضرورة الاتفاقية مع ابن السعود .

وفي نفس اليوم (٣١ يناير ١٩١٥) الذي ابرقت فيه وزارة الهند بموافقتها مع ملاحظاتها ، كتبت للخارجية البريطانية شرحت لها المقترحات ، ثم اشارت الى ان ابن السعود لا يريد ان يدخل في التزامات وتعهدات الا بعد عقد معاهدة رسمية مع بريطانيا .

وفي يوم ٢ فبراير ١٩١٥ اجابت وزارة الخارجية بانها توافق على المعاهدة .

وقد كانت المعاهدة التي وقعت في ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ ، هي ثمرة المباحثات الاولية التي اجراها النقيب شكسبير مع عبد العزيز في الرياض .

توقيع المعاهدة

قدم السير برسي كوكس المقيم البريطاني في الخليج الى القطيف في اواخر شهر ديسمبر عام ١٩١٥ ، واجتمع بعبد العزيز بن سعود في جزيرة دارين بالخليج العربي لتوقيع المعاهدة ، وكان برفقة السير برسي كوكس المستر فيلبي ، الذي كان آنذاك من كبار موظفي كوكس الاداريين في الحملة البريطانية على العراق . وقد قام احمد الثنيان بالمشاركة في اعداد المعاهدة مع الجانب السعودي ، وتم توقيعها في يوم ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ ، وصودق عليها في لندن في يوم ١٨ يوليو ١٩١٦ ، واطلق على المعاهدة اسم (معاهدة دارين) .

آراء في المعاهدة

لقد اجمع مؤرخو الاحداث السعودية على التنديد بالمعاهدة ، واعتبروها وصمة عار في جبين الحكم السعودي . وتمشيا مع المثل القائل (من فمك أدينك) .. نورد هنا آراءً لبعض رجال الحكم السعودي في المعاهدة .

(١) لقد وصف فؤاد حمزة وكيل وزارة الخارجية السعودية المعاهدة بأنها (معاهدة جائرة) .

(٢) وقال عنها السفير السعودي خير الدين الزركلي (انها على غرار المعاهدات التي كان الانجليز يعقدونها مع امارات الخليج) .

(٣) ووصفها مستشار عبد العزيز وسفيره في لندن حافظ وهبة فقال (انها معاهدة تضعه تحت الحماية البريطانية كسائر امراء الخليج ، فكانت كل اتصالاته برئيس الخليج الذي كان يقيم عادة في بوشهر) .

ونعتها سياسي سعودي بأنها (المعاهدة المشينة) ، وقال عنها صلاح الدين المختار في كتابه (المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها) «انها المعاهدة المشؤومة» .

وعلق الكاتب الفرنسي المسيو جان جاك بيربي على المعاهدة يقول (الذي يجهله العموم أو يغفل عن ذكره الكثيرون من المؤرخين ، انه ليس مشرِّفا .. لا للعرب ولا للبريطانيين .. اذ انه لقاء مساعدة مالية شهرية قدرها خمسة آلاف جنيه استرليني اعترف سلطان نجد للبريطانيين بحق الاشراف على علاقاته الخارجية ، كجميع امراء الخليج والجنوب العربي ، وتعهد عبد العزيز بن سعود بان لا يتنازل عن أي شبر من أراضيه في أي حال من الاحوال ، وان لا يقيم علاقات مع أية دولة الا بعد الحصول على موافقة الحكومة البريطانية بذلك) .

ومع كل ذلك ، فقد وجد عبد العزيز بن سعود في معاهدة دارين عام ١٩١٥ تحقيقا لاكبر آماله في ان يصبح ذيلا رسميا لبريطانيا ، ومحميا بأوعادها .

نص المعاهدة البريطانية ــ السعودية لعام ١٩١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

بين الحكومة البريطانية من جهة ، وبين عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود أمير نجد والاحساء والقطيف وجبيل وجميع المدن والمرافيء التابعة لهذه المقاطعات من جهة أخرى .

الحكومة البريطانية باسمها ، وعبد العزيز باسمه وباسم ورثته واخلافه ورجال عشيرته ، عينت الحكومة البريطانية الكولونيل السير برسي كوكس معتمدها في سواحل خليج العجم ، مفوضا لاجل ان يعقد معاهدة مع عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود ضمن المقصد الآتي :

توطيد وتوكيد الصداقة الموجودة بين الطرفين منذ زمن طويل ، وتأكيد

منافعهما المتقابلة : ان الكولونيل السير برسي كوكس وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود المعروف بابن السعود ، اتفقا وتعاهدا على المواد الآتية :

اولا : ان الحكومة البريطانية تعترف وتقبل بأن نجدا والاحساء والقطيف وجبيل وملحقاتها التي تعين هنا والمرافيء التابعة لها على سواحل خليج العجم ، كل هذه المقاطعات هي تابعة للامير ابن سعود وآبائه من قبل . وهي تعترف بابن سعود حاكما مستقلا على هذه الاراضي ، ورئيسا مطلقا على جميع القبائل الموجودة فيها ، وتعترف لأولاده وأعقابه الوارثين من بعده على ان يكون خليفته منتخبا من الامير الحاكم ، وان لا يكون مخاصما لانجلترا بوجه من الوجوه ، أي انه يجب ان لا يكون ضد المباديء التي قبلت في هذه المعاهدة .

ثانيا : اذا تجاوزت احدى الدول على اراضي ابن سعود أو اعقابه من بعده دون اعلام الحكومة البريطانية ، ودون أن تمنح الوقت المناسب للمخابرة مع ابن سعود لاجل تسوية الخلاف ، فالحكومة البريطانية تعاون ابن سعود ضد هذه الحكومة ، وفي مثل هذه الظروف يمكن للحكومة البريطانية بمساعدة ابن سعود ان تتخذ تدابير شديدة لاجل محافظة وحماية منافعه .

ثالثا : يتعهد ابن سعود ان يمتنع عن كل مخابرة أو اتفاق أو معاهدة مع أية حكومة أو دولة اجنبية ، وعلاوة على ذلك فانه يتعهد باعلام الحكومة البريطانية عن كل تعرض أو تجاوز يقع من قبل حكومة اخرى على الاراضي التي ذكرت آنفا .

رابعا : يتعهد ابن سعود بصورة قطعية ان لا يتخلى ولا يبيع ولا يرهن ، ولا بصورة من الصور يقبل بترك قطعة أو التخلي عن الاراضي التي ذكرت آنفا ، ولا يمنح امتيازا في تلك الاراضي لدولة اجنبية أو لتبعة دولة اجنبية ، دون رضا الحكومة البريطانية ، وأنه يتبع نصائحها التي لا تضر بمصالحه .

خامسا : يتعهد ابن سعود بان يبقي الطرق المؤدية الى الاماكن المقدسة مفتوحة ، وان يحافظ على الحجاج أثناء ذهابهم الى الاماكن المقدسة ورجوعهم منها .

سادسا : يتعهد ابن سعود ـــ كما تعهد والده من قبل ـــ بان يمتنع عن كل تجاوز أو تداخل في أرض الكويت والبحرين وأراضي مشايخ قطر وعمان وسواحلها وكل المشايخ الموجودة تحت حماية انجلترا والذين لهم معاهدات معها .

سابعا : الحكومة البريطانية وابن سعود يتفقان فيما بعد بمعاهدات على التفصيلات التي تتعلق بهذه المعاهدة ، في ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ .

ملاحظات على المعاهدة :

تتوارد على الذهن كثير من الملاحظات حول المعاهدة السعودية البريطانية لعام ١٩١٥ ، وبعض هذه الملاحظات يتعلق بصيغة المعاهدة ، وبعضها يتعلق بالمكاسب التي حصل عليها الطرفان منها ، وبعضها يتعلق بتحديد مستوى العلاقة بين اطرافها ، وبعضها ــ وهو الاخير ــ يتعلق بالصفة القانونية التي نشأت للجانب السعودي من المعاهدة ، وسنعرض هنا لبعض هذه الملاحظات .

١ ــ بالنسبة لصيغة المعاهدة .. يلاحظ الدارس لها انها جزأت الى جزئين ، الاول ما يختص بتعهدات ابن السعود ، وهذا قد صيغ بصيغة واضحة ومحددة . والجزء الثاني ما يختص بتعهدات بريطانيا ، وهذا صيغ بصيغة مبهمة .. أو قابلة لاكثر من تفسير .. أو معلق على شروط تحمل اكثر من معنى ويحوطها الغموض والابهام .

وفي هذه المعاهدة بدا ابن السعود غرًّا في السياسة ، سطحيا في الدبلوماسية ، قليل الخبرة في الشؤون الدولية ، على خلاف ما يتشدق به مرتزقة القلم من مزوري التاريخ السعودي ، الذين وصفوا ابن السعود بالدهاء والعبقرية والنضج السياسي المبكر .

٢ ــ بالنسبة للمكاسب التي حصل عليها الطرفان من المعاهدة .. يمكن ايضاحها بان بريطانيا قد حصلت على ما يلي :

أ ــ اعتراف من ابن السعود بان تكون صاحبة السيادة الحقيقية على اراضيه ، فلم يعد من حقه ــ بموجب المعاهدة ــ ان يبيع أو يتخلى أو يرهن أو يقبل بصورة من الصور ترك أي قطعة من الاراضي التي تحت يده بدون رضا الحكومة البريطانية .

ب ــ اعتراف من ابن السعود بأن تكون المهيمنة على اقتصاد بلاده ، فلم يعد من حقه ــ بموجب المعاهدة ــ ان يمنح امتيازات في اراضيه لدولة اجنبية او لتبعة دولة اجنبية دون رضا الحكومة البريطانية . وطبيعي ان تكون امتيازات

البترول في مقدمة الامتيازات المنوه عنها .

ج ــ التزام ابن السعود بالمحافظة من جانبه على امن مناطق نفوذها في الخليج العربي ، فقد تعهد ــ بموجب المعاهدة ــ بالامتناع عن كل تجاوز وتداخل في اراضي الكويت والبحرين واراضي مشايخ قطر وعمان وسواحلها وكل المشايخ الموجودين تحت حماية انجلترا ، الذين لهم معاهدات معها .

د ــ التزام بان لا يكون خلفاء ابن السعود مخاصمين لها بوجه من الوجوه .

اما ما هي هذه الوجوه ؟ .. فقد احتفظت بريطانيا بتحديدها وتفسيرها عند الحاجة وفق مصلحتها وظروفها .

اما الذي حصل عليه ابن السعود من المكاسب عن طريق المعاهدة فهي كالتالي :

أ ــ اعتراف بريطانيا بانه حاكم على نجد والاحساء والجبيل والقطيف ، وهو اعتراف بواقع قائم .

ب ــ وعد بالتعاون في حالة تعرض اراضيه للتجاوز من قبل دولة اجنبية ، ولم يحدد نوع المعونة ولا حجمها ولا شروطها ، ولم تفسر التدابير الشديدة التي ستتخذها بريطانيا ، وتركت كل هذه الامور لتقديراتها . ولم تكتف بريطانيا بذلك ، بل اشترطت لالتزاماتها بتقديم العون شرطين كانا لصالحها وحدها ، ينص الشرط الاول على ان يكون التجاوز قد وقع دون اعلامها .. ومعنى هذا انه متى اعلمتها الدولة المتجاوزة بعزمها على التجاوز فان بريطانيا لا تكون حينذاك ملزمة بتقديم العون لابن السعود . الشرط الثاني ان يساعدها ابن سعود على اتخاذ ما سمته المعاهدة بالتدابير الشديدة ، ولم يحدد نوع المساعدة المطلوبة منه في هذه الحالة ، وبذلك تحول الامر من التزام بريطاني الى التزام سعودي ، ومع ذلك فان غموض المساعدة المطلوبة يتيح لبريطانيا امكانية تفسيرها بما يتعذر على ابن السعود تقديمه ، ليتسنى لبريطانيا الافلات من تنفيذ التزاماتها .

٣ ــ بالنسبة لمستوى العلاقة بين اطراف المعاهدة ، يبدو الفارق كبيرا جدا ، ويمكن توضيحه فيما يلي :

أ ــ عدم وجود تكافؤ بين طرفي المعاهدة ، ففي حين نص على ان بريطانيا دولة عظمى .. فانه لم ينص على الجانب الآخر بأي صفة دولية ، ولم يشر الى مملكة أو دولة او امارة او مشيخة ، وانما اشير فقط الى رئيس عشائر سمي

ابن سعود وقبلت به بريطانيا حاكما على عدة مدن .

ب ـــ خلافا للاعراف المتبعة في مثل هذه المعاهدات ، لم يكن هناك تكافؤ في الرتبة الرسمية للموقعين في الجانبين ، حيث وقعها عن بريطانيا موظف تابع للمخابرات في حكومة الهند هو السير برسي كوكس ، في حين وقعها عن الطرف الثاني اكبر مسؤول في الدولة الذي هو ابن السعود نفسه ، مما يتنافى مع الاعراف الدولية ، وينزل بمستوى رئيس الدولة الى مستوى موظف في دائرة صغيرة لدولة ثانية .

٤ ـــ بالنسبة للصفة القانونية التي نشأت للجانب السعودي من توقيع المعاهدة ، نوضح الآتي :

أ ـــ وافق ابن السعود على التبعية الرسمية لبريطانيا ، ورضي بأن تكون دولته ناقصة السيادة ، كما ينص على ذلك التعريف القانوني للدولة الناقصة السيادة القائل (ان الدولة الناقصة السيادة هي كل دولة لا تمارس اختصاصات سيادتها كلها بمفردها ، بل تعهد بشيء منها الى دولة اخرى باية صورة من الصور) ، وقد قيدت المعاهدة تصرفات ابن السعود في منح الامتيازات برضى بريطانيا ، وأوكلت اليها اتصالاته الخارجية .

ب ـــ وافق ابن السعود على ان تكون بلاده محمية بريطانية ، وذلك بموجب المعاهدة التي وقعها ، ولم يغير من هذه الحقيقة ما ورد فيها من اشارة الى كونه حاكما مستقلا ، فالتعريف القانوني لنظام الحماية صريح في هذا الصدد ، حيث نص على ان الحماية (نظام دولي ينشأ عن معاهدة دولية بين دولتين ، بمقتضاها تتنازل احداهما عن جزء من سيادتها دون أن يصل مقدار هذا التنازل الى الحد الذي يفقدها وصف الدولة) ، وهذا لم يكن اكثر منه متوفر في المعاهدات السعودية البريطانية التي تركت امر الدفاع عن الاراضي السعودية لبريطانيا ، وتركت لها كذلك أمر التمثيل الخارجي .

وبالاضافة الى ما تقدم استعراضه ، فهناك نقطة هامة لم ينتبه اليها ابن السعود ، او انتبه اليها ولم يعرها اهتماما ، وهي ان المعاهدة التي وقعها لم تكن محددة بفترة زمنية كما هو المتبع بالنسبة للمعاهدات . وقد اعطى اهمال ذلك .. المعاهدة السعودية البريطانية ، صفة الابدية ، ولولا الظروف الدولية التي نشأت عن الحرب العالمية الاولى ـــ والتي سنعرض لها بشيء من الايضاح فيما بعد ـــ لظلت البلاد ترزح تحت نير المعاهدة ، ولربما تبع ذلك امور كان يمكن

ان تكون أسوأ بكثير من نصوص المعاهدة نفسها ، كما عودنا الاستعمار في كل بلاد ابتليت به .

الآثار العملية لمعاهدة القطيف

لقد ترتب على توقيع معاهدة القطيف بين ابن السعود وبريطانيا عام ١٩١٥ آثار عملية فعلية بالنسبة لطرفي المعاهدة ، نوجزها فيما يلي :

أ ــ بالنسبة لبريطانيا تحققت ثلاثة أمور :

(١) تأمين خط المواصلات البريطاني البحري الذي تمر به معدات الغزو من الهند للعراق ، وتأمين امدادات التموين للجيوش البريطانية الغازية ، فقد كان اقليم الاحساء هو الثغرة الوحيدة في جدار النفوذ البريطاني في الخليج ، وقد حقق ابن سعود بطرد العثمانيين من الاحساء وعقد المعاهدة ووضع نفسه وبلاده تحت الحماية البريطانية ، توسيع النفوذ البريطاني واحتوائه لجميع الشواطيء المطلة على الخليج .

(٢) تأمين المحميات البريطانية في الخليج والامارات الخاضعة لها من الغزو السعودي نفسه ، وبقاء الحكم حاجزا مانعا من وصول اي خطر عثماني اليها ، وهو امر مهم لبريطانيا في مثل تلك الظروف ، لانه يؤمن مؤخرة جيوشها الغازية ويخلق لها نوعا من الضمانة .

(٣) قطع الطريق على كل معونة محتملة قد تصل للعثمانيين في البصرة من حائل او الحجاز ، يمكن ان تساعدهم على الثبات للغزو البريطاني ، وفعلا .. فقد بدأ ابن سعود بمشاغلة ابن الرشيد بالحرب والحيلولة بينه وبين تقديم أي مساعدة ممكنة للعثمانيين .

ب ــ وبالنسبة لابن سعود .. حققت له المعاهدة بالمثل ثلاثة امور :

١ ــ شبه اعتراف رسمي من بريطانيا بسلطته على اقليمي نجد والاحساء ،

وهو امر كان ابن سعود يتلهف الى إعلانه رسميا ، لانه لم يكن حتى ذلك الحين واثقا من كفاية العلاقات السرية القائمة بينه وبين رجال المخابرات البريطانية في الخليج .

٢ ــ الحصول على راتب شهري ثابت من المخابرات البريطانية قدره خمسة آلاف جنيه ذهبي ، للانفاق منها على القبائل المحاربة الى جانبه ، بالاضافة الى المنح السخية التي كان يتلقاها بين حين وآخر من المخابرات البريطانية حسب الحاجة .

٣ ــ الحصول على امدادات من السلاح والذخيرة من بريطانيا ، حيث فتحت له مخازن الحملة البريطانية الزاحفة على العراق ابوابها لتتدفق عليه مخزوناتها من السلاح والذخيرة باستمرار ، وعززت كذلك بمشورة عسكرية بريطانية تمثلت في وصول عدد من العسكريين البريطانيين ابتداءا بالنقيب شكسبير وانتهاءا بالمستر جون فيلبي اللذين لم يكتفيا بتقديم المشورة .. بل شاركاه في حروبه وادارا لها .

معاهدة جدة « بحرة »

كما كانت معاهدة « القطيف » عام ١٩١٥ ثمنا مسبقا لوقوف عبد العزيز آل سعود الى جانب الانجليز في الحرب العالمية الاولى وطرد العثمانيين من الخليج وحماية ظهر القوات البريطانية اثناء زحفها على العراق ومشاغلته ابن الرشيد بالحرب ومنعه من تقديم اي عون للعثمانيين في حربهم مع البريطانيين ، كذلك كانت معاهدة جدة عام ١٩٢٧ ثمنا لاحقا لقيام عبد العزيز بتنفيذ المخطط البريطاني في القضاء على حكم الملك حسين في الحجاز والتخلص من الوعود التي بذلها له الانجليز بانشاء دولة عربية كبرى موحدة ، واخلاء السبيل لهم للتصرف بفلسطين وفق وعودهم التي اعطوها للصهاينة ، وابقاء العرب دولا صغيرة وامارات ممزقة حتى اليوم .

لقد كانت معاهدة جدة ثمنا لمأساة اكبر ، ما زال جرحها ينزف في كبد الامة العربية ، مأساة ساعد على خلقها وابقائها ابن سعود . وهناك عامل آخر كان له أثره في استبدال معاهدة القطيف بمعاهدة جدة ، هو ان الولايات المتحدة الامريكية كانت ـــ بوحي من شركاتها البترولية الكبرى ـــ تطالب بريطانيا باتباع سياسة الباب المفتوح واعطاء الفرصة لشركاتها بالمساهمة في استثمار منابع البترول في العراق وايران والجزيرة العربية . وقد ظلت بريطانيا تصد المطامع الامريكية وتوصد في وجهها الابواب منذ اواخر القرن التاسع عشر حتى بداية الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ ، وفي هذه الحرب اضطرت بريطانيا الى طلب المساعدة الحربية الامريكية ، وكان ثمنها الذي حددته امريكا هو المشاركة في استثمار نفط الشرق الاوسط ، وكان هينا على بريطانيا ان تهب ما لا تملك كما هو شأنها في كل موقف مماثل ، لذلك كانت مشاركة امريكا في استثمار البترول على نوعين : الاول هو المشاركة في مناطق تم التفاوض بشأنها والاعداد لاستثمارها .. كما هو الامر في العراق وايران ، وقد كانت هذه المشاركة عن طريق اعطائها اسهما مماثلة لاسهم بريطانيا وفرنسا ، على ان تكون الشركة

ذات الامتياز بريطانية الادارة ومسجلة في انجلترا كشركة بريطانية .

اما النوع الثاني فهو مشاركة في مناطق لم يجر التفاوض بشأنها مع الدول ذات السيادة ، ولم يجر الاعداد لها ، وقد اختصت بريطانيا بقطر او الساحل العماني ، واشتركت مع امريكا في المنطقة الكويتية ، واعطت لامريكا حق الحصول على امتيازات استثمار البترول في جزائر البحرين وساحل الاحساء ، واشترطت بريطانيا مقابل المشاركة الامريكية ان تبقى وحدها المهيمنة بنفوذها السياسي والعسكري على جميع المنطقة العربية . وقد قبلت امريكا ـــ او بالاحرى شركاتها البترولية ـــ بهذه التسوية التي فتحت لها ابواب الشرق الاوسط على مصراعيها .

وبموجب هذه الاتفاقية لم تعد اراضي ساحل الاحساء مهمة بالنسبة للاقتصاد البريطاني ، كما ان الهيمنة السياسية بقيت مضمونة لبريطانيا . لذلك لم تعد معاهدة القطيف مناسبة للصيغة الجديدة من العلاقات البريطانية الامريكية ، واصبح ضروريا ان يعطي ابن سعود حرية الاتصال بالدول الاخرى خارج النطاق البريطاني ، ويمنح حرية التعاقد واعطاء الامتيازات في اراضيه ليتمكن من التعاقد مع الولايات المتحدة عام ١٩٣٣ على حق التنقيب عن البترول واستثماره ، ولعل تذمر الاخوان من العلاقات السعودية البريطانية التي بدأت تتكشف لهم بعد احتلال الحجاز .. كانت احد العوامل التي عجلت بتبديل المعاهدة ، وهكذا ـــ وبدون عبقرية من ابن السعود ولا نضال تحرري منه ـــ الغت بريطانيا معاهدة الحماية واستبدلتها بمعاهدة جدة التي سنتحدث عنها ، وقد أعاد التاريخ نفسه في الخليج خلال الستينات بين بريطانيا وامريكا .. فالغت معاهدات الحماية مع الامارات والمشيخات ، وتخلت لامريكا عن النفوذ السياسي والعسكري في المنطقة مقابل حماية مصالحها البترولية فيها .

لقد مهد لاستبدال المعاهدة بدعوة الامير فيصل بن عبد العزيز الى لندن في صيف عام ١٩٢٦ ، وكان يومذاك نائبا للملك في الحجاز ، وصحبه في هذه الزيارة الدكتور عبد الله الدملوجي ومستر جوردان وكيل القنصل البريطاني في جدة ، وهناك في لندن ابلغت وزارة الخارجية البريطانية فيصلا بما تعتزمه من تبديل المعاهدة .. بحيث تتمشى مع السياسة الجديدة لبريطانيا .

وفي اكتوبر عام ١٩٢٦ ابلغ الملك عبد العزيز مستشاريه بان الحكومة البريطانية قد اعتزمت القيام بمفاوضات لعقد معاهدة صداقة جديدة تحل محل

معاهدة « القطيف » ، وان مستر جوردان سيكون المندوب البريطاني في هذه المفاوضات ، يساعده جورج انطونيوس الذي كان في الحقيقة مندوب امريكا في المحادثات .

وقد اشترك عن الجانب السعودي في المفاوضات فؤاد حمزة وكيل الخارجية ، واستمرت المفاوضات في وداي العقيق قرب المدينة المنورة لوضع اسس المعاهدة الجديدة ، ووصلت الى جدة بعثة برئاسة الجنرال كلايتون للاشتراك في المحادثات ، وانتهى البحث معها الى وضع معاهدة جدة وامضاها فيصل بتفويض من الملك عبد العزيز ملك الحجاز ونجد وملحقاتها ، ووقعها بتفويض من بريطانيا الجنرال جلبرت فاكنجهام كلايتون في ٢٠ ــ ٥ ــ ١٩٢٧ ، وتبودلت قرارات ابرامها وتاريخ توقيعها واصدر عبد العزيز مرسوماً بتصديقها في ١٧ سبتمبر ١٩٢٧ .

نص معاهدة جدة

جلالة ملك بريطانيا وايرلندا والممتلكات البريطانية وما وراء البحار وامبراطور الهند من جهة ، وجلالة ملك الحجاز ونجد ملحقاتها من جهة اخرى . رغبة في توطيد العلاقات الودية السائدة بينهما وتوثيقها وتأمين مصالحهما وتقويتها ، قد عزما على عقد معاهدة صداقة وحسن تفاهم ، لذلك اوفد صاحب الجلالة البريطانية حضرة السير جلبرت فاكنجهام كلايتون مندوبا مفوضا عنه ، وانتدب صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها صاحب السمو الملكي الامير فيصل بن عبد العزيز ، نجله ونائبه في الحجاز ، مندوبا مفوضا عنه بناءاً على ما تقدم .

وبعد الاطلاع على مستندات اعتمادهم والتثبت من صحتها ، قد اتفقا على المواد الآتية :

المادة الاولى : يعترف صاحب الجلالة البريطاني بالاستقلال التام المطلق لممالك صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها .

المادة الثانية : يسود السلم والصداقة بين صاحب الجلالة البريطاني وصاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها ، ويتعهد كل من الفريقين المتعاقدين بان يحافظ على حسن العلاقات مع الفريق الآخر ، وبان يسعى بكل ما لديه من

الوسائل لمنع استعمال بلاده قاعدة للاعمال غير المشروعة الموجهة ضد السلام والسكينة في بلاد الفريق الاخر .

المادة الثالثة : يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بتسهيل اداء فريضة الحج لجميع الرعايا البريطانيين والاشخاص المتمتعين بالحماية البريطانية من المسلمين .. أسوة بسائر الحجاج ، ويعلن صاحب الجلالة الملك بانهم يكونون آمنين على اموالهم وانفسهم اثناء اقامتهم في الحجاز .

المادة الرابعة : يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بتسليم مخلفات من يتوفى في البلاد التابعة لجلالته من الحجاج المذكورين آنفاً ، والذين ليس لهم في بلاد جلالته اوصياء شرعيون ، الى المعتمد البريطاني في جدة او من ينتدبه لهذا الغرض لايصالها لورثة الحاج المتوفى المستحقين ، بشرط ان لا يكون تسليم تلك المخلفات الى الممثل البريطاني الا بعد ان تتم المعاملات بشأنها امام المحكمة المختصة ، وتستوفى عليها الرسوم المقررة في القوانين الحجازية او النجدية .

المادة الخامسة : يعترف صاحب الجلالة البريطانية بالجنسية الحجازية والنجدية لجميع رعايا صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها عندما يوجدون في بلاد صاحب الجلالة البريطانية او البلاد المشمولة بحماية جلالته ، وكذلك يعترف صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بالجنسية البريطانية لجميع رعايا صاحب الجلالة البريطانية ولجميع الاشخاص المتمتعين بحماية جلالته عندما يوجدون في بلاد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها ، على ان تراعى قواعد القانون الدولي المرعي بين الحكومات المستقلة .

المادة السادسة : يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بالمحافظة على الصلات الودية والسلمية مع الكويت والبحرين ومشايخ قطر والساحل العماني الذين لهم معاهدات خاصة مع حكومة صاحب الجلالة البريطانية .

المادة السابعة : يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها ان يتعاون بكل ما لديه من الوسائل مع صاحب الجلالة في القضاء على الاتجار بالرقيق .

المادة الثامنة : على الفريقين المتعاقدين ابرام هذه المعاهدة وتبادل قرارات الابرام بأقرب وقت ، وتصير هذه المعاهدة نافذة اعتبارا من تاريخ تبادل قرارات

الابرام ، ويعمل بها مدة سبع سنوات ابتداءا من ذلك التاريخ ، وان لم يعلم احد الفريقين المتعاقدين الفريق الآخر قبل انتهاء السنوات السبع بستة اشهر أنه يريد ابطال المعاهدة .. تبقى نافذة ولا تعتبر باطلة الا بعد مضي ستة اشهر من اليوم الذي يعلن فيه ابطالها من احد الفريقين الى الفريق الآخر .

المادة التاسعة : تعتبر المعاهدة المعقودة بين صاحب الجلالة البريطانية وصاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها في ٢٦ كانون الاول سنة ١٩١٥ يوم كان جلالته حاكما لنجد وما كان ملحقا بها إذ ذاك .. ملغاة ابتداءً من تاريخ ابرام هذه المعاهدة .

المادة العاشرة : دونت هذه المعاهدة باللغتين العربية والانجليزية وللنصين قيمة واحدة ، اما اذا وقع اختلاف في تفسير اي قسم منها فيرجع الى النص الانجليزي .

المادة الحادية عشر : تعرف هذه المعاهدة بمعاهدة جدة . وقعت هذه المعاهدة في جدة يوم الجمعة في الثامن عشر من ذي القعدة سنة ١٣٤٥ هجرية الموافق عشرين ايار سنة ١٩٢٧) .

وقد علق فيلبي في كتابه « ايام عربية » على معاهدة جدة بقوله : (وقد تعرضت هذه الصداقة التي خلقتها المعاهدة الجديدة للمحك والتجربة ابان الحرب الكونية الثانية ، فصمدت لها ، مما حمل المستر تشرشل على ان يفوه بالعبارة التالية عندما اجتمع بابن سعود عام ١٩٤٦ في أوبرج الفيوم بعد مؤتمر يالطة اذ قال : « انه لشرف عظيم لي وسرور ما بعده سرور ان اجتمع الى الرجل الذي برهن حقا على انه صديق وفي وقت الشدة والضيق ») .

وبالرغم من ان هذه المعاهدة خالية من النصوص التي تفرض اي نوع من انواع التبعية لبريطانيا ، فقد عاش عبد العزيز آل سعود طيلة حياتهِ بإحساسه القديم النابع من التبعية البريطانية ، ولم يستطع التمرد على هذا الاحساس ، فلم يكن في دخيلة نفسه يصدق انه اصبح ملكا على ثلاثة ارباع الجزيرة العربية لولا الانجليز ، وانه لا يمكن ان يستمر كذلك اذا لم يبق إسنادهم اليه مضمونا .

وقد اخذ هذا الشعور يتجلى في عدد من المظاهر ندرج منها ما يلي :

١ ــ الاعتزاز بالصداقة البريطانية ، فقد ذكر الزركلي في كتابه « شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز » ما نصه (كان عبد العزيز يحيط ما بينه وبين الانجليز من صداقة بهالة من الرعاية والصون ، كان يدخل السرور

عليه ويبعث الغبطة في نفسه ان يشعر بان الانجليز اصدقاؤه) .

٢ ــ التنويه بهذه الصداقة ، فقد ذكر الميجر ديكسون المعتمد البريطاني في الكويت ان عبد العزيز قال له اثناء حديث معه (نحن العرب اصدقاء تقليديون لبريطانيا العظمى منذ عدة سنوات ، ونحن آل سعود ــ بصورة خاصة ــ كنا اصدقاء مخلصين لحكومتكم طيلة حياتنا) . وذكر فيلبي ان عبد العزيز قال له (اني اعرف ان علي ان احافظ دائما على الصداقة الطويلة القائمة بيني وبين بريطانيا) .

٣ ــ الشعور الدائم بأن من حق الانجليز ان يفرضوا عليه ما يشاؤون ، فقد ذكر الاستاذ امين الريحاني في كتابه « ملوك العرب » ان عبد العزيز قال له (لا نتنازل عن شيء من حقوق اجدادنا ، أما اذا قال الانجليز نبغي هذا منك وجاؤوني بأمر محتوم فانا اسلم لهم) ، وروى أمين في موضع آخر ان عبد العزيز قال له (اما الانجليز فهم اصدقائي وانا صديقهم ، اذا قالوا نبغي هذا منك قلت لكم ما تشاؤون) .

والحقيقة ان الذي كان يضعف موقف عبد العزيز آل سعود ازاء الانجليز ليست نصوص المعاهدات وليس احترامه لهم ، وانما هو شعوره العميق بانه مجرد عميل لهم ، وان اي عميل آخر يمكن ان يحل محله اذا حاول التمرد عليهم ، وقد ذكر امين الريحاني ان عبد العزيز قال له (يظن الناس اننا نقبض من الانجليز مبالغ كبيرة من المال . والحقيقة انهم لم يدفعوا لنا الا اليسير مما تستحقه الاعمال التي قمنا بها اثناء الحرب وبعدها ، ونحن لا نختلف معهم قبل ان يختلفوا معنا ، بيننا وبينهم عهد نحافظ عليه .. ولو تضررنا في انفسنا ومصالحنا ، الانجليز مدينون لنا .. ترى الصحيح يا استاذ ونحن لا نطالبهم .. من العار ان نطالبهم .. انا صديقهم ابن سعود) . من هذه الاقوال ومن مسيرة ابن سعود نفسه وسيرة ابنائه من بعده ، نعرف ان علاقة العمالة بينه وبين الانجليز لا تحتاج بالضرورة الى معاهدات متبادلة ونصوص مسجلة ، فقد كان ابن سعود يفتخر بصداقات لاجداداه مع بريطانيا لم تكن هي الاخرى مكتوبة ، وقد اكدت سيرته العملية كل الاقوال التي ادلى بها بشأن صداقته للانجليز ووفائه بهذه الصداقة .

ملاحظات على معاهدة جدة

من دراسة هذه المعاهدة والظروف التي لابستها ، نخلص بعدة حقائق منها ما يلي :

١ ــ ان الانجليز بعد احتلال الحجاز واعتقال الملك حسين في قبرص بالاقامة الجبرية ، كانوا قد تحللوا من التزاماتهم العربية و لم يعد يلزمهم ان يكثروا من القيود التي شحنوا بها مشروع المعاهدة التي طلبوا من الملك حسين توقيعها ، لذلك جاءت معاهدة جدة هذه خالية من جميع تلك القيود ، ويمكن التأكد من ذلك بالمقارنة بين هذه المعاهدة ومشروع المعاهدة التي طلبوا من الملك حسين توقيعها ورفضها لانها تمس سيادته وتمس حقوق الفلسطينيين في وطنهم ولا تفي بالاوعاد المقطوعة بشأن الدولة العربية الموحدة .

٢ ــ انه حصلت لدى الانجليز القناعة الكافية بأن ابن السعود اكثر التزاما وانضباطية بما يريدونه مما يمكن ان تتضمنه نصوص المعاهدات وقصاصات الورق .

٣ ــ بالرغم من عدم النص على ان تكون علاقات ابن السعود بالدول الاخرى عن طريق بريطانيا ، فانه لم ينشيء علاقة بالخارج الا بعد سنة ١٩٣٠ ، وكانت اول مفوضية يقيمها ابن سعود هي مفوضيته في لندن . وقد انتدب لها اكبر شخصية سياسية لديه من المستشارين .. حافظ وهبة ، وهذا يعني ان وهبة كان يقوم في مفوضيته بدور هام في نقل رغبات الانجليز ان لم نقل تعليماتهم الى ابن السعود بثقة وامانة ، وكان ابن السعود ينفذها بدقة واعتزاز .

٤ ــ بالرغم من عدم النص على التزام الانجليز بتقديم الحماية لابن سعود من اي هجوم ياتيه من الخارج كما نص عليه في معاهدة القطيف ، فان بريطانيا انجدت ابن السعود بالاسلحة والاعتدة عندما تعرض لثورة الاخوان الداخلية عام ١٩٢٩ ، بل استنفرت اسطولها في الخليج وطائراتها الرابضة على الحدود لمهاجمة الاخوان وقصفتهم بالقنابل وتعقبتهم حتى اسرت زعماءهم وسلمتهم الى ابن السعود .

٥ ــ لقد اكدت معاهدة جدة ما سبق في معاهدة القطيف من تعهد ابن

سعود بعدم التعرض للمحميات والامارات والمشيخات التي لها ارتباطات ببريطانيا او كان لبريطانيا نفوذ فيها .

٦ ــ وردت في المعاهدة كلمة « المعتمد البريطاني في جدة » ، اشارة الى الممثل البريطاني فيها ، والجدير بالملاحظة ان بريطانيا كانت تستعمل كلمة المعتمد لممثليها السياسيين في المستعمرات والمحميات ، وتستعمل كلمة السفير والوزير المفوض لممثليها في الدول المستقلة ، وهذا يوحي بان بريطانيا بالرغم من الاطار العام للمعاهدة كانت ما تزال تنظر الى ابن السعود في عداد الامراء المشمولين بحمايتها ونفوذها .

٧ ــ اشارت المعاهدة في البند الثاني الى ان يمنع كل فريق استعمال بلاده قاعدة للاعمال غير المشروعة الموجهة ضد السلام في بلاد الآخر ، والمقصود بكلمة بلاد هنا نجد والحجاز من جانب ويمثلها ابن السعود ، والامارات والمحميات العربية من الجانب الآخر وتمثلها بريطانيا واطلاق صفة بلاد الآخر يعني ان ابن السعود يقر أن الامارات والمشيخات العربية هي بلاد انجليزية .

وبالرغم من وجود نص في المعاهدة على حق كل من الطرفين في انهائها اي وقت شاء ضمن فترات محددة ، الا انه لم يصل الى علمنا ان الحكم السعودي ألغى من جانبه هذه المعاهدة او طالب بالغائها رغم مرور العلاقات السعودية البريطانية بازمات حادة خلال الخمسينات بسبب منطقة البريمي التي سنتحدث عنها لاحقا ، بل اكدت التحركات الفيصلية الاخيرة عكس ذلك ، كما سنوضحه فيما يأتي .

تعديلات على معاهدة جدة

اعيد النظر في معاهدة جدة بعد انقضاء زهاء عشر سنوات على عقدها ، فتبادلت الحكومتان البريطانية والسعودية مذكرتين في اجتماع عقد في وزارة الخارجية بجدة يوم ٣ ــ ١٠ ــ ١٩٣٦ ، وفي المذكرتين تعديلات غير جوهرية اهمها استجابة بريطانيا الى مطالبة السعودية بنزول بريطانيا عن افضل بند في المعاهدة وهو حقها في عتق الارقاء الذين كانوا يلجأون الى القنصل البريطاني في جدة ، وكان طلب السعودية والحاحها هذا ــ كما رواه السفير السعودي حافظ وهبة ــ بسبب حادثة غاية في الغرابة يحسن ان نوردها بنصها

عن كتاب وهبة « خمسون عاما في جزيرة العرب » وهذا هو النص : (ان ازمة حادة حدثت سنة ١٩٣٢ بين بريطانيا والمملكة العربية بسبب الرقيق ، فقد كانت المعاهدة البريطانية ــ السعودية تقضي بتحرير الرقيق الذي يلجأ الى القنصلية او المفوضية البريطانية ، فلسبب ما لجأ الى الهرب ثم التجأ الى المفوضية البريطانية عبد قد اهدي لجلالة الملك ، وقد طلبت الحكومة السعودية اعادته فابت المفوضية تسليمه واحضرت سفينة حربية الى جدة خشية ان تحاول الحكومة العربية انتزاعه بالقوة ، وقد كان من رأيي في كل هذه المسائل الخاصة بالرق ان تكون الحكومة العربية السعودية أكثر تساهلا وأميل إلى تحرير العبيد من الحكومة البريطانية . وفي مسائل الرق لا يوجد نصير للحكومة العربية لا في الشرق ولا في الغرب ، وفي هذه المسألة على وجه الخصوص .. ابرقت الى الحكومة العربية في هذا الموضوع اقترحت ان يقال ان هذا العبد لا يخص جلالة الملك ولا نعرفه ، فقد يكون مدعيا صفة العبودية لغرض في نفسه ، ولكن الحكومة العربية رفضت هذا الاقتراح ، وبدلا من ان تنهي المسألة عند هذا الحد .. تلقيت البرقية الآتية بتاريخ ٥ فبراير سنة ١٩٣٢ من الامير فيصل بوصفه وزيرا للخارجية :

« ابلغوا ترجمة المذكرة الاتية حرفيا الى السير جون سيمون وزير الخارجية : عهد الى صاحب السمو المليك وزير الخارجية بأن ابلغ حكومة معاليكم انه بالرغم من الغاية النبيلة التي دعت حكومتينا الى تبادل التمثيل السياسي المعتاد بينهما ، فان حكومتي تأسف من ان السير اندرو رايان شرع منذ قدومه للحجاز في وضع العراقيل في سبيل العلاقات الحسنة بين البلدين ، وفي سبيل المجازفة في كثير من الامور التي تؤثر على علاقات الجانبين ، وقد بلغ به الامر انه في عدة مرات تجاوز حدود التصرف مع شخص جلالة الملك نفسه ، وبالتكلم مع جلالته بلهجة غير مألوفة ، فانه في اثناء حديثه مع جلالة الملك بعد تقديم اوراق اعتماده ببضعة ايام .. اتهم جلالة الملك بحضور بعض وزرائه انه يعيش في عالم الاوهام والخيال ، وفي حديث معه في مارس الماضي بشأن الموقف على الحدود في شرق الاردن .. اتهم جلالته بأنه شخصيا يعكر صفو السلام على الحدود ويشجع الغزو والقلق .

وفي حديثه مع وكيل الخارجية عن قضية الرقيق قال انه يحمد الله ان المستر هوب جيل كان معه في الجلسة ليشهد على ما يدور من الحديث ، خوفا من

انه في حالة موته نزور على لسانه اشياء لم يقلها ، كما نزور الآن على كلايتون المتوفى . وقد كان صاحب الجلالة الملك عبد العزيز وحكومته يغضون الطرف عن اساءته ومقابلته بالاساءة .. اكراما لخاطر حكومته . ولكن الان لم يعد بالامكان الصبر اكثر مما مضى ، والسير اندرو لم يخدم حسن العلاقات .. بل على العكس ، انه لم يزد العلاقات الحسنة الا تباعدا بين الفريقين ، واصبحنا في شك من حقيقة الموقف ، وهل هو يعمل كل ذلك من نفسه ام بموافقة حكومته . ان آخر اعمال المذكور المسيئة .. قضية عبد لجلالة الملك التجأ الى المفوضية ، فابلغته وزارة الخارجية ان العبد من عبيد صاحب الجلالة الذين يجب عدم التجاؤهم بموجب الاتفاق الذي حصل بين صاحب الجلالة وبين الحكومة البريطانية ، ولكن السير اندرو تجاوز ذلك وداس كرامة كلمة الملك واهان السلطات المحلية وحقّر الحكومة جهارا ، بان استحضر البارجة الحربية « بيزانس » ونقل العبد اليها ، واساء بذلك الى كرامة الحكومة محتقرا سلطاتها . وفي الحقيقة انه لولا الاوامر الملكية التي وصلت في اخر لحظة بعدم استعمال القوة في منع اركاب العبد المذكور لكانت نشأت عن تهور السير اندرو رايان حادثة خطيرة لا يمكن التكهن بمعرفة نتائجها . والظاهر ان السير اندرو استعد لاحداث الفتنة داخل مدينة جدة لتحقيق الغرض الذي يريده ، ثم لاحداث مشكلات عويصة بين الحكومتين . ان حكومة صاحب الجلالة الملك تحتج على تصرف السير اندرو رايان غير اللائق بكرامتها ، وترى ان بقاءه واسطة بينها وبين الحكومة البريطانية لا يكون منه الا تفاقم المشاكل بين الجانبين ، وهذا على كل حال لا يرضي صاحب الجلالة الملك عبد العزيز ولا الحكومة البريطانية ، وليس من مصلحتها الاستمرار فيه . ان حكومة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز تنتظر الجواب السريع الحاسم لكي لا يتسع الخلاف وتتورط الحكومتان في مشاكل بسبب السير اندرو هما في غنى عنها) .

ويعقب حافظ وهبه على ذلك بقوله (لم يكن من رأيي تقديم هذه المذكرة للحكومة البريطانية ، لانها تتضمن بعض المسائل التي سبق حلها مع الحكومة البريطانية ، ولم تكن هناك مسألة اخرى اثارت هذه المذكرة الا مسألة العبد — بخيت — الاخيرة .. وقد كنت افضل ان يترك الموضوع برمته الى فرصة اخرى يكون فيها احد الامراء في لندن وتثار طريقة معالجة السير اندرو رايان للمشاكل ، وروح العجرفة الذي يصاحبه دائما في احاديثه مع المسؤولين

السعوديين . ولكن الحكومة اصرت على تقديم المذكرة كما هي ، فرأيت ان أفضل طريقة لمعالجة هذا الموضوع الشائك ان اسافر الى جنيف لحضور مؤتمر تخفيض السلاح ، وكنت ممثلا للحكومة ، وان يقوم القائم بالاعمال بتقديم المذكرة في اثناء غيابي .. ففعل ، فكان لهذه المذكرة أسوأ الاثر في وزارة الخارجية البريطانية . وبعد بضعة ايام تسلمت مذكرة في ٢١ مارس ١٩٣٢ ، وقد جاء في المذكرة ما يلي :

(وآخر تهمة ضد المستر اندرو رايان تتعلق بتصرفه في مسألة العبد المحرر ــ بخيت ــ ، وهو يلاحظ انه في بدء محادثاته في هذا الموضوع بيَّن بوضوح لفؤاد بيك حمزة انه اذا كانت الحكومة الحجازية لا ترى سبيلا للموافقة على تحرير بخيت واعادته الى وطنه .. فليس امامه الا ان يحيل الامر علي لاصدار تعليماتي ، وان التصرف الذي اتخذه في النهاية بعد ما بذل كل جهد لانهاء المسألة وديا كان طبقا للتعليمات التي تلقاها مني .

وعلاوة على ذلك اريد ان اسجل ان السير اندرو رايان بهذه المناسبة لم يقم باي عمل في المسألة الا بتعليمات مباشرة مني شخصيا اتحمل انا جميع تبعتها ..

التوقيع « خادمكم المطيع جون سيمون »

ويظهر ان مسألة العبد بخيت وما اثارته من نخوة جلالة الملك العنترية لم تغير في الامر شيئا فلم يعد العبد ولا توقفت بريطانيا عن تحرير عبيد السعودية وبقى الامر كذلك حتى عام ١٩٣٦ عندما اصبح لكل من طرفي المعاهدة الحق في التحوير فيها وكان اهم ما يشغل بال حكومة صاحب الجلالة السعودي حكاية العبد بخيت الذي تحرر رغم انف جلالته فالغيت هذه المادة من المعاهدة واعتبرت سارية المفعول بدونها لمدة سبع سنوات اخرى .

لقد اطلنا الاستطراد في حادثة العبد بخيت لعدة اسباب منها :

١ ــ انها تمثل مرحلة متميزة من مراحل العلاقات التي كانت على الدوام ودية بين الحكم السعودي العميق والاستعمار البريطانية البغيض .

٢ ــ ان نبين من خلالها نوعية الهزات التي يمكن ات تصيب العلاقات السعودية البريطانية ــ وانها هزات لا تصل الى الجذور ولا تمس جوهر التعاون بين الطرفين في تكريس النفوذ الاستعماري البريطانية في البلاد العربية .

٣ ـــ ان نروى الاحداث بامانة عن مصدر مسؤول في الحكم السعودي وموثوق به من الطرفين كان طرفا في احدى مراحلها وعاملا مؤثرا فيها .

واعيد تجديد معاهدة جدة عام ١٩٤٣ واضيف اليها نص يشير الى انها ستتجدد ما لم يخطر احد الطرفين الطرف الاخر برغبته في انهائها خلال ستة اشهر قبل موعد الانتهاء المعاهدة .

والحقيقة ان العلاقات السعودية البريطانية لم تكن تحكمها المعاهدات بقدر ما تحكمها الثقة المتبادلة بين الطرفين والتعاون المشترك الذي يستهدف بالنسبة للبرطانيين استمرار نفوذهم في الجزيرة العربية ويستهدف بالنسبة للسعوديين وجود حليف قوي يحمي حكمهم من اي هجوم خارجي وينجدهم ضد اي ثورة شعبية يمكن ان تعصف بهم . وقد بقى هذا التعاون ثابتا كما اشرنا اليه سابقا .

التبادل الدبلوماسي بين بريطانيا وآل سعود

كان البريطانيون بحكم معاهدة القطيف هم الذين يمثلون المصالح السعودية في الخارج ولم يكن ابن سعود يتصل بالحكومة البريطانية مباشرة بل يتم اتصاله بها عن طريق موظفي الادارة الاستعمارية في الهند شأنه في ذلك شأن المحميات البريطانية في الخليج العربي . وقد اكد ذلك حافظ وهبة بقوله (وكانت كل اتصالات الملك عبد العزيز برئيس الخليج الذي كان يقيم عادة في بوشهر على الساحل الفارسي) ولما عقدت معاهدة جدة كان الغرض منها كما قلنا السماح لعبد العزيز بالاتصال المباشر بالدول الاخرى واعطائه الحرية في عقد الامتيازات مع الشركات البترولية الامريكية ولذلك فقد كان في مقدمة الاجراءات التي اتخذتها الحكومة السعودية انشاء وزارة للخارجية تتولى اقامة علاقات دبلوماسية مباشرة مع الدول الاخرى . وفعلا فقد انشئت الوزارة عام ١٩٢٩ وعين الامير فيصل ابن عبد العزيز وزيرا لها وقضت ثلاثة اعوام في التنظيم الداخلي وفي عام ١٩٣٢ عين اول وزير مفوض سعودي لاول مفوضية سعودية وكانت هذه المفوضية في لندن . وقد اشار حافظ وهبه الوزير المفوض السعودي للاسباب التي جعلت لندن تحظى باهتمام وزارة الخارجية السعودية فخصتها باول مفوضية لها في العالم وقد جاء ذلك في مذكرة قدمها وهبه في مارس عام ١٩٣٢ الى وزير الخارجية البريطانية وهذا نصه (ان تاريخ علاقات جلالة الملك ابن سعود

بالحكومة البريطانية مفعم بالبراهين على صحة ما تقدم « العلاقات الحسنة مع الحكومة البريطانية » وان حرص جلالة الملك على تقوية علاقاته مع الحكومة البريطانية هو الذي دفعه للالحاح على تبادل الوزراء المفوضين بين البلدين قبل التفكير في ذلك مع اية دولة اخرى وحتى الان ليس لحكومة صاحب الجلالة وزير مفوض في غير بريطانيا . ان الحكومة البريطانية تذكر ولا شك ما كان من التعاضد والتعاون بين صاحب الجلالة وبين رجال الحكومة البريطانية السابقين .. ولا توجد حكومة بذلنا من اجل ودها وحسن العلاقة بها مثل ما بذلنا من اجل ودها وحسن العلاقة بها مثل ما بذلنا مع الحكومة البريطانية ومواقف جلالة الملك السابقة وصداقته كلها معروفة للحكومة البريطانية . التوقيع وزير الحجاز ونجد المفوض) . وقد رفعت الحكومة السعودية مفوضيتها في لندن بعد ذلك الى درجة سفارة .

وفي شهر نوفمبر عام ١٩٥٥ سحبت الحكومة السعودية سفيرها من لندن علامة احتجاج على طرد جنودها من البريمي . وظلت سفارتها بدون سفير حتى شهر يوليو عام ١٩٦٣ حيث اعيد استئناف العلاقات بهدف التعاون ضد ثورة اليمن .

تضاؤل الدور البريطاني في سياسة الدولة السعودية

أشرنا فيماسبق الى أن تقاسم غنائم الحرب العالمية الاولى بين الحلفاء الغربيين المنتصرين قد اعطى امريكا حق الانفراد باستثمار الموارد البترولية في مملكة ال سعود . وتبعا لذلك بدأت الطلائع الامريكية تغزو مملكة آل سعود تحت شتى الذرائع وقد كان أولها زيارة امين الريحاني الداعية الامريكي(٢) بحجة السياحة والكتابة عن البلاد العربية بينما كان هدفه الحقيقي شد ازر ابن سعود في الحصول على اكبر رقعة من الاراضي في المباحثات التي جرت في العقير عام ١٩٢٢ بين الملك عبد العزيز وبين السير برسي كوكس بشأن ما سمي في حينه بتخطيط الحدود النجدية العراقية والحدود النجدية الكويتية . وكان آخر الطلائع المستر كراين المليونير الامريكي المعروف الذي سمى نفسه صديق العرب وذلك عام ١٩٢٩ بحجة محاولة تقديم المعونة الجيولوجية لابن سعود في استخراج الماء من اعماق الصحراء . وكان هدفه الحقيقي اعداد ابن سعود نفسيا للتحول من عميل بريطاني الى عميل بريطاني امريكي مزدوج والقبول بالقرارات الدولية التي ربطت اقتصاديات بلاده البترولية المنتظرة بعجلة الاستعمار الاقتصادي الامريكي . وقد كان معروفا لدى الاوساط البترولية منذ سنوات وقبل الحرب العالمية الاولى بزمن طويل وجود بترول في القطيف . ويؤكد ذلك المستر ديكسون بقوله (عندما كنت وكيلا سياسيا في البحرين عام ١٩٢٠ قمت بأذن من ابن السعود بجولة على ظهر الجمال والحمير في كل منطقة الظهران وعبرت من القطيف الى دارين عاصمة جزيرة تاروت حيث اطلعني الشيخ جاسم بن عبد الوهاب باشا الذي يقيم هناك على نسخة من تقرير تركي يفيد بان منابع للبترول موجودة فعلا وراء القطيف . اما التقرير فقد ارسله المتصرف التركي الى استانبول عندما كان الاتراك يحتلون المنطقة قبل عدة سنوات) .

وفي سنة ١٩٣٣ منح الملك عبد العزيز لشركة كاليفورنيا الامريكية حق البحث عن البترول واستثماره في مساحة قدرها ٣٦٠,٠٠٠ ميل مربع . ويظهر

ان المستر فلبي الذي فقد الكثير من مبررات وجوده في السعودية بعد تحولها الى منطقة نفوذ امريكية لم يشأ ان ينبت عن واقع الامور المتطورة فاصبح عميلا مزدوجا لبريطانيا وامريكا معا وقد انتدبته المصالح البترولية الامريكية لاختراق الربع الخالي في عملية تمهيدية للبحث عن البترول في المنطقة ولكن الشركة البترولية الامريكية لم تبدأ غزو صحراء الربع الخالي بفرقها الجيولوجية المجهزة الا بتاريخ ١٧ ــ ٩ ــ ١٩٥١ مبتدئة بالزاوية الشمالية الشرقية منه متجهة الى الجنوب والغرب .

وحيث انه هذه الزاوية تتصل اتصالا مباشرة بالمحميات البريطانية في ساحل عمان فقد اثار ذلك مشكلة عرفت في القاموس السياسي بمشكلة (البريمي) .

قصة الحدود السعودية

كان المخطط الذي رسمه الانكليز للملك عبد العزيز ان يكونز سيفهم المسلط على رؤوس الامارات والمشيخات وحتى الممالك التي لهم نفوذ عليها يهددونها به كلما عدت الحاجة كما فعلوا مع الشريف الادريسي في عسير والشريف حسين في الحجاز والملك يحيى في اليمن ومع الاردن والعراق الكويت وغيرها في فترات مختلفة وكان هذا المخطط يقتضي ان تظل الاراضي الخاضعة لابن سعود غير محددة حتى يمكن تحريكه ضد اي بلد عربي يحاول التمرد على النفوذ البريطاني . وكان تذمر الشعب في العراق عام ١٩٢٢ من غزوات القبائل التي يرسلها ابن سعود بايعاز من الانجليز وتجاوزها على الاموال والارواح قد اوجد تخوفا لدى السلطات البريطانية في العراق من حدوث ثورة شعبية ضدهم كثورة العشرين فبادروا الى اتقاء الاحتمالات التي قد تطوح بما تبقى لهم من نفوذ هناك وعملوا على وضع خط للحدود بين نجد والعراق .

اما الحدود الكويتية السعودية فقد حددها البريطانيون بشكل قصد منه اضعاف الكويت ووضعها في حالة من العجز تفقدها امكانية قيام معارضة كويتية لاي مشروعات بريطانية . وقد كان من نتائج هذا التحديد ادخال ثلثي اراضي الكويت ضمن الاراضي السعودية لوضعها بشكل ضعيف بين دولتين قويتين هما السعودية والعراق واقناعها دوما بالحاجة للحماية البريطانية . وقد تم التوقيع على اتفاقية الحدود السعودية العراقية والسعودية الكويتية بتاريخ

٢ ــ ١٢ ــ ١٩٢٢ تحت اشراف السير برسي كوكس في ملحقين متممين لاتفاقية المحمرة واطلق عليهما اسم بروتو كولي العقير .

ان هذا المؤتمر الذي دام سبعة ايام والذي لم يخل الحديث فيه عن مشروعات بترولية قادمة اغفل بعمد من الحكومة البريطانية تحديد الحدود بين السعودية وكل من الاردن والحجاز والمحميات البريطانية في الجنوب العربي وامارات الساحل العماني وامارة قطر . وبقي الامر كذلك حتى عام ١٩٥١ عندما بدأت طلائع الحملات الجيولوجية المنطلقة من الاراضي السعودية تغزو الربع الخالي ابتداء باطرافه الشرقية المحاذية لامارات الساحل العماني وفي مقدمتها منطقة البريمي التي تدعي كل من عمان وابو ظبي حقوقا اقليمية فيها .

مشكلة البريمي

يقدر الخبراء دخل مخزون الزيت في البريمي تقديرا خياليا وقد كان مخزون البترول هذا هو مبرر الخلاف بين بريطانيا وعميلها الحكم السعودي على المنطقة او بالاصح مبرر النزاع بين الشركات البترولية الامريكية والبريطانية . ومنطقة البريمي منطقة واسعة يدعى السيادة عليها كل من سلطان مسقط وشيخ ابو ظبي والواقع ان هذه المنطقة كان تدار من قبل سكانها تحت زعامة امام عمان الشرعي ولم يكن للسعوديين ولا لسلطان عمان ولا لشيخ ابو ظبي نفوذ عليها وعندما فكرت شركة الزيت الامريكية السعودية عام ١٩٣٤ بامكانية وجود الزيت في هذه المنطقة دفعت بالسعوديين الى اطلاق دعوى حق السيادة عليها محتجين بانها احتلت من قبل اجدادهم قبل اكثر من مائة عام . وقد اثارت هذه الدعوى حفيظة الشركات البريطانية فدفعت بالحكومة الانجليزية الى التشبث بالبريمي نيابة عن شيخ ابو ظبي الذي كانت تمثل مصالحه الخارجية محتجة بان البريمي داخلة ضمن سيادة شيخ ابو ظبي الجغرافية .

وكان اهتمام امريكا او بالاصح شركاتها ببترول البريمي احد الاسباب التي دفعتها الى تأييد الثورة المصرية في بدايتها بقصد زعزعة السيطرة البريطانية على قناة السويس ومسك الزجاجة من عنقها ولكن بريطانيا ثبتت للحرب الخفية فلم تتنازل عن تشبثها بالبريمي كما لم تغامر باستثمار بتروله وقد ادى النزاع بين الدولتين الاستعماريتين الى حرب خفية طويلة الامد كانت لها مظاهر متعددة

ومعقدة ليس هنا مجال كاف لاستعراضها .

وفي سنة ١٩٥١ اجريت مفاوضات بشأن البريمي بين الامير فيصل بن عبد العزيز ممثلا للسعوديين وبين الحكومة البريطانية ثم استؤنفت في الدمام عام ١٩٥٢ وكان البون شاسعا بين الطرفين المتفاوضين . وفي آخر جلسة من جلسات المؤتمر صرح السير روبرت ماري المقيم البريطاني في الخليج بان الموضوع لا يمكن حله بهذه الطريقة وان الافضل احالته للتحكيم وتعهد الفريقان بان لا يقوما باي نشاط في المناطق المختلف عليها ولا يشجعا شركات الزيت في القيام باي بحث او تنقيب . الا ان شركة ارامكو استمرت في الاتصال المباشر بمشايخ القبائل البريمية عن طريق المستشرق الامريكي المستر جورج رنس الذي كان يعمل لصالح المخابرات الامريكية ويجيد لهجات القبائل ويتكلمها ، وقد تمكن بواسطة القبائل من القيام بدراسات جغرافية وجيولوجية لواحة البريمي . ورصدت ارامكو ملايين الدولارات لغرض الاستيلاء على المنطقة بواسطة الحكومة السعودية لتتمكن من الفوز بالبترول قبل الشركات الانجليزية وفي هذا السبيل زود المستر رنس الحكومة السعودية بالمعلومات الدقيقة والصور الفوتوغرافية والخرائط .

وقد قامت الحكومة السعودية من جانبها ببذل مئات الالاف من الريالات في سبيل ارشاء زعماء قبائل البريمي وكسبهم الى جانبها عند التحكيم او الاستفتاء . وقد ذكر الشيخ زايد بن سلطان حاكم ابو ظبي الحالي ان عبد الله القريشي اتصل به في السادس والعشرين من يوليو ٩٥٤÷ عن طريق شخص يدعى علي براك وعرض عليه سيارة جديدة مع اربعين الف روبية وان يخصص له من عائدات اي بترول يكتشف في البريمي اربعمائه مليون ربية . وعبد الله القريشي هذا كان يعمل كاتبا بسيطا في شرطة القطيف ثم انتدب ليكون كاتبا مع الامير تركي بن عطيشان الذي بعثه السعوديون لكسب مشايخ البريمي الى جانبهم وقد اصبح القريشي الموجود حاليا في الدمام مليونيرا من اموال الرشوات السعودية التي كان يتولى توزيعها على مشايخ القبائل . ولقد وزع السعوديون من الاموال في البريمي على سبع دفعات ما بين اغسطس عام ١٩٥٤ واكتوبر عام ١٩٥٥ فقط مبلغ مليون وثلاثمائة واثنين وعشرين الفا ومائتين وتسعين ربية وانفقوها على شراء الذمم .

اما من ناحية المفاوضات فقد استمرت بين الامير فيصل عن الحكومة

السعودية وبين المستر جي . سي . بلهام السفير البريطاني في جدة عن الحكومة البريطانية . وبينما كانت اجراءات التحكيم سائرة في طريقها احست بريطانيا بان الاموال السعودية سوف تهزمها لو استمرت في اجراءات التحكيم فامرت ممثلها السير ريدر بولارد في سبتمبر ١٩٥٥ بالانسحاب من هيئة التحكيم متهمة الحكومة السعودية بانها خالفت اتفاقية التحكيم برشوة بعض الحكام والسكان . وفي اكتوبر سنة ١٩٥٥ احتل الجنود البريطانيون منطقة البريمي وكان احتلالهم لها باسم شيخ ابو ظبي .

وقد اثار الاجراء البريطاني ثائرة شركة ارامكو الامريكية ولكن الحكومة السعودية لم تقدرم رغم ذلك على قطع علاقتها ببريطانيا . ولكن ارامكو لم تقتنع بالتغاضي السعودي وضغطت ضغطا متواليا لاتخاذ اجراء مناسب للتعبير وجاءت المناسبة عندما هاجمت بريطانيا بالاشتراك مع فرنسا واسرائيل مصر عام ١٩٥٦ فقطعت الدبلوماسية ببريطانيا مدعية ان اجرائها هذا اتخذ من اجل مصر . ولكنها عادت وفضحت نفسها عندما اعلنت على لسان الامير فيصل رئيس الوزراء في شهر ابريل عام ١٩٥٨ عن استعدادها لاستئناف العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا شريطة تسوية مشكلة الحدود عن طريق انسحابها من البريمي . وقد رفضت بريطانيا هذا الشرط ورفضت تبعا لذلك اعادة العلاقات .

وبعد ثورة اليمن وبعد التسويات السرية التي تمت بين امريكا وبريطانيا بشأن مستقبل الجزيرة والخليج وضمان المصالح النفطية البريطانية وافقت بريطانيا في شهر يناير عام ١٩٦٣ على اعادة العلاقات بين الحكومتين بحجة بحث مشكلة البريمي تحت اشراف الامين العام للامم المتحدة بصفته الشخصية ولكن المشكلة لم تحل حتى الان بالرغم من تنازل قابوس سلطان مسقط عن دعواه في البريمي .

النفوذ البريطاني

كان جريا بنا ان نتوقف في الحديث عن العلاقات السعودية ــ البريطانية عند عودة التعاون بين الحكم السعودي العميل وسيده القديم الاستعمار البريطاني بعد القطيعة التي حدثت بينهما بضغط من شركات البترول الامريكية بسبب البريمي .

وذلك بالنظر الى دخول الطرفين في مرحلة جديدة من التعاون لم تصل غاياتها ولم تتوضح كل مجالاتها وان كانت هويتها معروفة لدى الجميع وهو التعاون ضد حركة التاريخ لاعاقة الجزيرة العربية عن التحرر والتطور بهدف ابقائها اسيرة التخلف والنفوذ الاستعماري الشرس وترك ثرواتها البترولية نهبا للشركات البترولية الشرهة وصد رياح الثورة التحررية عن ان تهب بها فتعصف بمرتكزات الجمود والتخلف .

غير اننا لم نستطرد فيما تقدم من البحث الى جوانب من الوقائع ذات الاهمية في العلاقات السعودية البريطانية وليس بالامكان اغفالها او تجاوزها لما لها من اثر كبير في توضيح عمق الارتباط بين السياسة السعودية والنفوذ البريطاني الموجه للكثير من جوانبها . ولذلك فاننا سنتعرض هنا لاهمها :

اولا : في السياسة الخارجية

لقد كان للنفوذ البريطاني اثر كبير في توجيه السياسة الخارجية للدولة السعودية منذ نشأتها وتدلنا على ذلك الكثير من الظواهر نورد منها ما يلي :

١ ــ كان من اوليات المهام التي اناطتها المخابرات البريطانية بممثلها المستر سانت جون فلبي عندما ارسلته للجزيرة العربية هو ان يوجه السياسة الخارجية السعودية لما يخدم المصالح البريطانية ولذلك جعله الملك عبد العزيز مستشاره الخاص للشؤون الخارجية .

٢ ــ ادرك فلبي من واقع الحياة في الجزيرة العربية انه لا يمكن ان يظهر

على السطح كمدبر للسياسة الخارجية السعودية بسبب نفور المواطنين الشديد من الانجليز لسمعتهم السيئة في منطقة الخليج وهي غير بعيدة عنهم ــ فاختار الامير فيصل ابن عبد العزيز واجهة لادارة السياسة الخارجية بينما يتولى بنفسه ادارتها الحقيقية بجانب فيصل ويقوم بالاضافة لذلك باعداد فيصل اعدادا يجعله يتجاوب تلقائيا مع المصالح البريطانية . ولذلك أشار فلبي على الملك عبد العزيز عام ١٩١٩ أن يرسل فيصلا الى لندن في مهمة رسمية كانت بريطانيا قد دعت اليها وان يكون هو ــ أي فلبي ــ مستشارا لفيصل . ولم يكن فيصل في سن تؤهله لان يتحمل اي مهام سياسية اذ لم يكن آنذاك قد تجاوز الرابعة عشر من عمره وهو عمر تلميذ في الصف الاول المتوسط . وبديهي ان الذي تولى بحث المهمة السياسية هو المستر فلبي وطبيعي انه انجز فيها ما يخدم السياسة البريطانية .

وقد استمر نفوذ فلبي في السياسة الخارجية السعودية بعد ان انشئت وزارة الخارجية السعودية عام ١٩٣١ وصار فيصل وزيرها بترشيح من فلبي نفسه وبهذا الصدد يقول فلبي في كتابه اربعون عاما في الصحراء ما نصه (في عام ١٩٣٩ ذهبت الى لندن تلبية لطلب ابن سعود لاعمل كمستشار للامير فيصل ازوده بالرأي والمعلومات) كان ذلك اثناء مؤتمر عقد هناك لبحث موضوع الهجرة اليهودية الى فلسطين . ويستمر فلبي فيقول (وعندما رأيت المؤتمر يكاد يمنى بالفشل وادركت خطورة وجوب العثور على حل للمشكلة اقترحت اعطاء فلسطين لليهود مقابل استقلال البلاد العربية كلها) .

ان اختيار فلبي من قبل السعودية كمستشار لها في الظاهر وممثل عنها في الواقع في قضية حساسة مثل قضية فلسطين التي صنعتها بريطانيا وعقدتها يكشف بجلاء مدى النفوذ البريطاني في السياسة السعودية الخارجية . وحسبنا من ذلك ان يقترح ممثل الحكم السعودي أو أحد أعضاء وفده في أضعف الاحوال اعطاء فلسطين لليهود بكل جرأة وثقة ويعود الى الجزيرة العربية ليوالي حياته الى جانب الملك عبد العزيز كمستشار خاص .

٣ ــ في عام ١٩٤٠ كان الدكتور (جروبا) وزيرا مفوضا غير مقيم في الحجاز وكان مقره الدائم في بغداد ، ولما أغلق البريطانيون السفارة الالمانية في بغداد بعد ثورة رشيد عالي طلب هتلر من ابن السعود ان يجعل مركز جروبا في جده غير ان ابن السعود استشار البريطانيين ــ كما يقول مستشاره حافظ

وهبه ــ فاخبروه شفهيا بأنهم لا يرحبون بقدون جروبا . وبناءا على رغبة بريطانيا رفض ابن السعود قبول جروبا وزيرا مفوضا لالمانيا في جدة .

٤ ــ في مؤتمر الكويت الذي عقد عام ١٩١٦ بدعوة السير برسي كوكس ورعايته وقف الملك عبد العزيز يعلن ما نصه (اني اعاهد الحكومة البريطانية بأن لا يأتيها مني ضرر ، وأعدها أيضا بأني لا أنضم الى أي حلف عربي ضدها) . ان صراحة عبد العزيز في أن لا ينضم الى أي حلف عربي ضد بريطانيا التي تستعمر معظم البلاد العربية يوضح أبلغ توضيح مدى التبعية السعودية للاستعمار البريطاني البغيض وكلنا يعرف ان أول عمل عربي جماعي اشترك فيه عبد العزيز أو الدولة السعودية هو الجامعة العربية و لم يكن اشتراكه فيها الا بمشورة من البريطانيين وان فكرة الجامعة من صنع المستر ايدن وزير الخارجية البريطانية آنذاك .

٥ ــ في سنة ١٩٣٦ قام الفلسطينيون بثورتهم الشهيرة التي أحرجت وضع البريطانيين وألهبت الارض تحت اقدامهم فما كان من بريطانيا الا أن أوحت لعميلها ابن السعود بالتدخل لدى الفلسطينيين ومطالبتهم بايقاف الثورة مقابل تعهد منه بأن بريطانيا ستستجيب لمطالبهم في الاستقلال عن طريق المفاوضات ــ وهو نفس الدور الذي تقوم به السعودية الان لاجهاض الثورة الفلسطينية والتآمر على القضية الفلسطينية كلها .

٦ ــ أثناء بحث بنود اتفاقية المحمرة المعقودة بين العراق ونجد برعاية بريطانيا عام ١٩٢٢ تقدم كل من ممثل ابن سعود احمد الثنيان وممثل بريطانيا (بوردلن) بادارج المادة التالية (تعتبر المعاهدة منفسخة ان حدث توتر بين احدى الدولتين الموقعتين على المعاهدة وبين الحكومة البريطانية) . ان مطالبة بريطانيا بادراج هذه المادة مفهوم لانها تعطيها الحق في تحريض احد الطرفين ضد الطرف الآخر اذا دخل هذا الطرف في خلاف مع بريطانيا . ولكن ما هي مصلحة ابن السعود في نقض المعاهدة اذا توترت الامور بين العراق وبريطانيا لولا النفوذ البريطاني في السياسة السعودية والعمالة السعودية لبريطانيا .

٧ ــ بعد ان استنفذت بريطانيا اغراضها من تحرشات ابن السعود باطراف العراق وارغمت الحكومة العراقية على المعاهدة البريطانية رأت بريطانيا ان من مصلحتها تهيئة لقاء بين ابن السعود وغريمه فيصل ملك العراق للتعاون تحت

مظلتها . وقد تم الاجتماع على ظهر البارجة البريطانية (لوبن) في الخليج يومي ٢٢ و٢٣ شباط ١٩٣٠ على بعد ١٥ ميلا من الفاو تحت اشراف السير فرنسيس همفريز . وقد جاءها عبد العزيز من ميناء العقير على الباخرة البريطانية (باتريك استيورت) التي اعتقل فيها زعماء الاخوان بعد اسرهم من قبل الانجليز .

ثانيا : النفوذ البريطاني في السياسة الاقتصادية

لقد أبقى الحكم السعودي الجزيرة العربية سوقا مقفلة للبضائع البريطانية وحدها خلال العقود الاربعة من هذا القرن وقد لعبت الاحتكارات البريطانية دورا كبيرا للاستئثار بخيرات البلاد واسواقها وفي هذا المجال نسوق الامثلة التالية للنفوذ البريطاني في السياسة الاقتصادية السعودية :

١ ــ نصت معاهدة القطيف عام ١٩١٥ على التزام ابن السعود بعدم منح الامتيازات في أراضيه الا بموافقة بريطانيا . وهذا هو السبب الذي اخر منح امتياز البترول من عام ١٩٢٢ الى عام ١٩٣٣ وترك البلاد تمر بالضائقة المالية الخانقة التي اجتاحت العالم في اواخر العشرينات .

٢ ــ وجه عبد العزيز ابن سعود كتابا الى المندوب السامي البريطاني بمصر في ١٩٤٦/٦/١٢ جاء فيه (أما المسألة الثالثة فهي موقف حكومة السوفيت وعزمها على حيازة النفوذ الاقتصادي في بلاد العرب اننا نصارحكم برأينا في هذه القضية اننا بادىء بدء اتخذنا في الحجاز الاجراءات التي لا تقاوم قوانين حرية التجارة في العالم واتخذنا من جهة ثانية بعض احتياطات اخرى لمنع سبق نفوذهم .

قد يكون من المفيد لاقتصاديات بلادنا تسهيل سبل التجارة من روسيا ولكننا نرى في ذلك ضررا لا يستهان به على منتجات البلاد البريطانية وانه وان لم يكن بيننا وبين الحكومة البريطانية اي اتفاقية تجارية لرعاية منتجاتها ولكننا حبا في المحافظة على المصالح البريطانية ومقاومة لمنافسيها وقفت حكومتنا في الحجاز ذلك الموقف الذي لا بد ان بلغكم امره) . أن هذه الصراحة التي يتحدث بها ابن السعود عن التضحية بمصلحة بلاده من أجل مصلحة المنتجات البريطانية لا تترك مجالا للشك في عمق العمالة التي يتشدق بها ابن السعود وعمق النفوذ البريطاني في السياسة الاقتصادية السعودية .

٣ ــ لمراقبة الاقتصاد السعودي استأثرت الحكومة البريطانية بسك العملة

السعودية الفضية منها والنيكلية في مسابك برمنجهام وقد أتاح ذلك لشركة المسابك الحصول على أرباح ضخمة ، بينما كانت الحكومة السعودية تنافق الشعب وتزور عليه فتكتب على العملة جملة (ضرب في مكة المكرمة) .

٤ ــ في عام ١٩٤٢ ونظرا لتزايد القروض والمساعدات المالية البريطانية للحكم السعودي فكرت بريطانيا في ادخال السعودية الى منطقة الاسترليني وتأسيس بنك مركزي فيها .

ثالثا : النفوذ البريطاني في السياسة العسكرية

لقد سبق ونوهنا بما قام به الحكم السعودي من عمليات عسكرية ضد ابن الرشيد في حائل والحسين ابن علي في الحجاز وضد اليمن والعراق والكويت لصالح الاستعمار البريطاني باشراف النقيب شكسبير والمستر فلبي وغيره من دهاقنة الاستعمار البريطاني . وعرضنا للتعاون والتنسيق المستمر بين الطرفين في كل العمليات حينما امد البريطانيون الغزاة السعوديين بكل ما يحتاجونه من الاسلحة والمعدات والذخائر والتخطيط للعمليات الحربية . وقد تجلى النفوذ البريطاني بالاضافة الى ذلك في السياسة العسكرية باشكال مختلفة نذكر منها ما يلي :

١ ــ تزويد الحكم السعودي حديثا بالاسلحة الثقيلة من دبابات وطائرات لا لاغراض الدفاع بل للهجوم على الدول العربية المجاورة التي تريد استكمال تحررها من النفوذ الاستعماري وبناء مستقبلها بعيدا عن السيطرة الاجنبية ويكفي ان نشير الى ان العدوان السعودي على اليمن الشمالي واليمن الجنوبي وظفار كان بالاشتراك مع الضباط البريطانيين والتنسيق معهم .

٢ ــ التدخل الحربي البريطاني لنجدة الحكم السعودي في أزماته الحادة مع المواطنين وقد تمثل ذلك في أكثر من مناسبة كان احداها اشتراك الطيران البريطاني في ارهاب ثوار القطيف عام ١٩٢٩ وثانيها قصف الثوار من الاخوان عام ١٩٣٠ وأسر زعمائهم وتسليمهم للسلطات السعودية .

٣ ــ بالمقابل كان الملك عبد العزيز رغم أطماعه في السيطرة على كل ما جاوره من أراضي . والرغبة في الحصول على الأملاك والمغانم . حذرا في كل ما يتصل بالبريطانيين وكان يتحرج في ان يصطدم بها او يجر رغما عنه الى ذلك ويبدو ذلك جليا في الحادثة التالية : كان ابن سويط احد زعماء القبائل

العراقية قد تمرد على حكومة العراق في العشرينات واخذ يشجع غارات السعوديين على القبائل العراقية مما دفع بالحكومة العراقية الى تشكيل قوة من الهجانة بقيادة يوسف السعدون ، فشكا ابن سويط لابن سعود من وجود قوة الهجانة العراقية فوعده ابن سعود بتأديبها شرط ان لا يكون فيها ضباط انجليز خشية ان يدخله وجودهم في صراع مع البريطانيين .

رابعا : النفوذ البريطاني في الشؤون الداخلية

بالرغم من ان توجيه السياسة الخارجية هو حجر الزاوية في مهمة فلبي لدى الملك عبد العزيز فقد كان للبريطانيين عن طريقه نفوذ في كل مرفق من مرافق الدولة وخطوة من خطواتها ومنها النفوذ في الشؤون الداخلية . ومن ذلك ان فلبي حرض ابن السعود على أمير مدينة الزلفى مما دفع بابن السعود الى طرده ففر باسرته الى خارج البلاد . ومن ذلك ان البريطانيين حرضوا ابن السعود على رئيس القطيف عبد الحسين بن جمعة وشجعوه على قتله لان بن جمعة هذا لم يستجب للانجليز عام ١٩٠٩ ويعلن انفصال اقليم الاحساء عن الدولة العثمانية ويرتبط بمعاهدة حماية مع البريطانيين . ومن ذلك ان فلبي أراد أن يزوج الامير سعود ابن عبد العزيز باحدى الانجليزيات كانت تعمل سكرتيرة في نادي انثبوم بلندن الا ان السكرتيرة رفضت العرض بالرغم مما وعدها به فلبي من مال وقصور ومجوهرات وخدم . ويظهر ان الملك عبد العزيز لم يكن واثقا من قدرته على ادخال انجليزية لحريمه في بلد مثل الرياض فصرف النظر عن المحاولة .

لم يتوقف النفوذ البريطاني عند السياسات الخارجية والاقتصادية والعسكرية والشؤون الداخلية للدولة السعودية بل تعداها الى شخص الملك نفسه الذي اصبح اشبه بدمية يحركها البريطانيون كيف شاؤا .

ففي عام ١٩١٦ شد رحاله بدعوة من السي برسي كوكس الى الكويت لحضور اجتماع استهدف منه التآمر على دولة الخلافة العثمانية لصالح المستعمرين البريطانيين ، وقد كان ابن السعود في الاجتماع عند حسن ظن البريطانيين فلم يأل جهدا في التحريض ضد الدولة العثمانية وقال كلمته المشهورة (لو كان في بدني قطرة دم تميل الى الاتراك لبذلت كل وسيلة لاخراجها من جسمي) .

وبعد مؤتمر الكويت مباشرة سافر في ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٦ بدعوة من برسي كوكس الى المعسكر البريطاني في الشعيبة بالبصرة وكانت المرة الاولى

التي يغادر فيها الجزيرة العربية . وفي البصرة تولت المس جرترود بل استقباله لتطوف به على مختلف الوحدات العسكرية البريطانية التي كانت تتأهب لاحتلال العراق واخضاعه للسيادة البريطانية ويقول الدكتور جمال زكريا قاسم ان ابن سعود تأثر لدى رؤيته لذلك العدد الوافر من المعدات الحربية واعجب بها . وقد ذكر فلبي ان هذه الزيارة وثقت علاقات المستر كوكس بابن سعود التي بداها عند اجتماعهما في العقير عام ١٩١٥ . ووصف السفير السعودي خير الدين الزركلي هذه الزيارة المشبوهة بانها كانت اول مرة يسافر فيها عبد العزيز لبلد اجنبي .

وكانت السفرة الثانية التي يسافر فيه ابن السعود الى خارج الجزيرة العربية تلك السفرة التي التقى فيها بفيصل بن الحسين ملك العراق عام ١٩٣٠ وكانت بدعوة من الانجليز وتحت اشرافهم .

اما السفرة الثالثة والاخيرة التي يغادر فيها ابن السعود اراضي الجزيرة العربية الى الخارج بدعوة من المستعمرين فهي تلك التي التقى فيها بالمستر تشرشل في اوبرج الفيوم عام ١٩٤٥ .

لقد اقنع ابن السعود البريطانيين بانه لم يبعهم وطنه وشعبه وامته فحسب بل باعهم دينه الذي كان يتشدق به والذي بني تحت ستار الدعوة اليه هيكل مملكته ولذلك حفظ له البريطانيون ولابنائه من بعده هذا التفاني في خدمة المصالح البريطانية فاجزلوا لعبد العزيز مساعداتهم المالية ومنحوه لقب سر جي.سي.آي ان . وانعموا بالاوسمة المتعددة عليه وعلى ابنائه في مناسبات مختلفة نذكر منا ما يلي :

١ ــ ذكر المستر فلبي ان المستر كوكس اجتمع بابن السعود في العقير وعلق على صدره الوسام الرفيع الذي منحته اياه الحكومة البريطانية .

٢ ــ وذكر الزركلي والمس بل وحسين الشيخ خزعل ان كوكس انعم على ربيبه ابن السعود وجابر بن مبارك الصباح في مؤتمر الكويت عام ١٩١٦ بالوسام البريطاني كي.سي.آي. اي المسمى بنجمة الهند . وقد ابرق عبد العزيزن وجابر الى اللورد شلسمفورد نائب الملك في الهند يشكرانه على منحهما وسام نجمة الهند هذا نصها :

(حضرة صاحب السعادة شلسمفورد حاكم الهند العام ونائب جلالة الملك المعظم والامبراطور نشكر عواطفكم الكريمة بتنازلكم لمخلصيكم بالتهنئة على

النياشين السامية الشأن التي تعطف بها صاحب الجلالة الملك المعظم على المخلصين الصادقين ، اننا نقابل هذه التعطفات الجليلة بمزيد الشكر والامتنان . نرجو ان نكون دائما كاسبين رضاكم بالخدمة الخالصة وملحوظين بعين عنايتكم الجليلة) .

٢٦ محرم ١٣٣٥

المخلص جابر المبارك الصباح
المخلص عبد العزيز عبد الرحمن

٣ ــ وذكر فؤاد حمزة في كتابه (البلاد العربية السعودية) انه في شهر شعبان عام ١٩٣٥ زار الوزير البريطاني المفوض مدينة الرياض وقدم للملك عبد العزيز الوشاح الاكبر من وسام الحمام العالي الشأن المهدى اليه من ملك بريطانيا .

اما الملك سعود فقد كان نصيبه من الاوسمة البريطانية ايام والده الوشاح الاكبر من وسام الامبراطورية البريطانية .

كذلك نال الملك فيصل في عهد ابيه وسامين من اوسمة الامبراطورية البريطانية هما وسام فارس من وسام سان ميشال وجورج . والوشاح الاكبر من وسام الامبراطورية البريطانية .

موقف الشعب من النفوذ البريطاني في الجزيرة العربية

ان شعب الجزيرة العربية الذي وقع في غفلة من الزمن فريسة الرجعية السعودية لم يستطع ان يتجاوب مع هذه الرجعية المتآمرة او يستسيغ سياستها سواءا ما كان منها على الصعيد الداخلي او ما كان منها في النطاق الخارجي . واذا كان الغالب في مواقفه السلبية الصامتة فانه في بعض الاحيان تجاوز الصمت الى المعارضة العلنية واخرى الى الكفاح المسلح ويحسن بنا ان نورد الامثلة التالية :

١ ــ بالنسبة للمعارضة السلبية نورد ما ذكره عبد الرحمن نصر في كتابه عاهل الجزيرة حيث يقول (ان الاخوان احتجوا على مقام الانجليز في الرياض ، فاذا التقى احدهم بواحد من اعضاء البعثة البريطانية يشيح وجهه عنه ويبصق) .

٢ ــ وبالنسبة للمعارضة العلنية نورد ما ذكره مصطفى الحفناوي في كتابه

ابن سعود من ان (كبير علماء الرياض قال ان ابن سعود اهمل مطالب الاسلام والمسلمين واصبح في ربقة الانجليز ، وأتهمه الاخوان بأن بريق ذهب الانجليز قد خدعه ، واحتج الوهابيون على السماح للانجليز بدخول الرياض) .

٣ ــ اما الاحتجاج المسلح فتكفي تلك الثورة الدامية التي شنها الاخوان بقيادة الدويش واستمرت خلال عامي ١٩٢٩ و١٩٣٠ وكانت موجهة ضد التحالف السعودي ــ البريطاني مما انذر بالقضاء على الحكم العميل لولا مبادرة الانجليز الى امداده بالمال والسلاح وضرب الحصار على الثائرين ومنعهم من الحصول على حاجتهم من الاطعمة واخيرا قصفهم بواسطة الطيران الامبراطوري الجاثم على الحدود حتى تساقط زعماء الثورة في اسر الانجليز الذين خالفوا كل الاعراف الدولية وسلموهم الى الجزار السعودي الذي صفاهم جسديا باساليب وضيعة ومهينة .

وقد اعترف عبد العزيز بن سعود نفسه بالنقمة الشعبية على عمالته للانجليز للمستر ديكسون عام ١٩٣٧ عندما قال له ما نصه (ان الصعوبة في رعايانا وفي قبائل الاخوان بنجد ، فبالنسبة لقضية فلسطين فان حواسهم هي في عيونهم ولا يستطيعون النظر ابعد من ذلك قيد شعرة ، وهم اليوم يلومونني لعدم وضوح موقفي ولاطاعتي اوامر الانجليز) .

موقف الحكم السعودي من الصراع الامريكي ــ البريطاني

ذكرنا فيما سبق ان الاستعمار البريطاني تحت ضغط ظروف الحرب العالمية الاولى سمح للنفوذ الاقتصادي الامريكي بأن يأخذ له حيزا في الجزيرة العربية اوائل الثلاثينات عن طريق شركات الزيت واحتفظ لنفسه بكامل النفوذ السياسي والعسكري . غير ان تفجر البترول بغزارة لم تكن في الحسبان وتدفق الاموال الامريكية على الجزيرة لاستثمارها في عمليات الانتاج بدأ يهددان النفوذ السياسي والعسكري البريطاني بالانحسار مما دفع بالبريطانيين الى العمل على استعادة نفوذهم الاقتصادي بشكل او باخر فاستغلوا توقف عمليات الانتاج اثناء الحرب العالمية الثانية ، وتقلص عدد الوافدين للحج بسبب ظروف الحرب وحاجة الدولة السعودية الى المال الذي نضبت موارده فاخذوا يقدمون لها الاغذية والمساعدات المالية التي بلغت في عام ١٩٤٤ وحده اربعة ملايين جنيه وقد اثار ذلك قلق شركة الزيت الامريكية (ارامكو) فحذرت حكومة الولايات

المتحدة مما دعته احتمال عودة النفوذ البريطاني او تحويل السعودية ـــ كما روى جمال زكريا قاسم ـــ الى مرتبة المحمية البريطانية وبذلك يخشى على مصير الامتيازات البترولية الامريكية .

وبناءا على تحذير ارامكو بادرت الحكومة الامريكية الى اتخاذ خطوتين هامتين في هذا السبيل مستغلة حاجة البريطانيين الذين يخوضون الحرب على الجبهة الغربية والجبهة المصرية معه الالمان والايطاليين وعلى جبهة الشرق الاقصى مع اليابانيين ـــ الى المال والسلاح الامريكي ففرضت على بريطانيا ان تدفع المال للسعودية من القروض الامريكية نيابة عنها وفرضت على الحكم السعودي ان يوقع معها اتفاقية على بناء قاعدة عسكرية امريكية في الظهران بالقرب من منابع البترول لتضمن لنفسها السيادة الاقتصادية والعسكرية وبالتالي السيادة السياسية ايضا .

ولكن الحكم السعودي ـــ بالرغم من تغلغل النفوذ الامريكي حاليا في كل مرفق من مرافق الدولة ـــ ما يزال يحن للنفوذ البريطاني ويعمل على استعادته بكل سبيل ويبرز هذا الاتجاه في الظواهر التالية :

١ ـــ توثيق التعاون بين المخابرات السعودية والمخابرات البريطانية في داخل الجزيرة وفي امارات الخليج .

٢ ـــ الارتباط مع بريطانيا بصفقات ضخمة من الاسلحة الثقيلة استبقاءا للنفوذ البريطاني بواسطة الحاجة المستمرة لتزويد هذه الاسلحة بالعتاد والذخيرة اللازمة له .

٣ ـــ وجود مئات من الضباط البريطانيين في معسكرات الحرس الوطني بحجة تدريب الحرس على السلاح البريطاني .

٤ ـــ مثابرة اقطاب البيت السعودي على القيام بزيارات دورية الى بريطانيا . وخصوصاً الملك فهد بن عبد العزيز وكذلك نايف وسلمان ، وأيضا الأمير عبد الله المرشح بعد فهد لعرش السعودية ، وقد لوحظ أن فهداً يقوم بزياراته للندن سنويا وتدوم هذه الزيارات عددا من الشهور يقضيها في الاتصالات بأساطين الاستعمار في وزارة الخارجية البريطانية .

٥ ـــ استمرار توافد العسكريين والسياسيين البريطانيين ورجال الاعمال وممثلي الشركات على البلاد بهدف تعميق النفوذ البريطاني في جميع المجالات المتاحة .

ويظهر ان المستر فلبي الخبير بالشؤون السعودية قد لمس هذا الجانب الثابت في السياسية السعودية تجاه بريطانيا الام وذلك قبل عشرين عاما عندما قال (ان وجهة نظر ابن سعود في امريكا هي انها لن تظل عاملا دائما في سياسات الشرق الاوسط ، وانما ستظل بريطانيا تلعب فيه دورها الكبير البارز) .

ويؤكد هذه النظرة السعودية التي توصل اليها فلبي ما جاء على لسان عبد العزيز في وصيته لولي عهده سعود عام ١٩٤٧ عندما قال له ما نصه (كلما سنحت لكم الفرصة افهموا الرئيس ترومان ورجال حكومته اننا منذ نشأنا كنا ولا نزال اصدقاء اوفياء لبريطانيا) .

ان احساسا خفيا يساور افراد البيت السعودي بان بقاء حكمهم في الجزيرة العربية مرهون ببقاء النفوذ البريطاني الذي اتى بهم الى الحكم وعمل سنينا طويلة على بناء دولتهم . ولذلك نجدهم يحرصون على ان يكون له في بلادهم نوع من النفوذ مهما كان شكله ومداه . ويذكرنا هذا بما كان فلبي يشعر به من ان دوره في الجزيرة العربية انتهى بوفاة الملك بعد العزيز .

الملك البريطاني غير المتوج في الجزيرة العربية

(شعرت فور وفاة الملك عبد العزيز ان دوري قد انتهى وان لا مكان لي في العهد الجديد) .

بهذه الجملة المليئة بالحسرة ، يعلن فيلبي عن ختام دوره في الجزيرة العربية ، هذا الدور الذي استمر اكثر من ثلث قرن ، فمن هو فيلبي هذا .. وما هو دوره ؟

ولد هاري جون سنت فيلبي في الثالث من نيسان ١٨٨٥ في جزيرة سيلان احدى المستعمرات البريطانية في الشرق الاقصى ، وقد تفتحت عيناه على ما يتمتع به المستعمرون البريطانيون من امتيازات كبيرة في هذا البلد ، حققها لهم استعمارهم اياه ردحا من الزمن ، فتشربت نفسه بحب الاستعمار ، واعجب بقادته ، واصبح همه ان يكون عضوا في الجهاز الاستعماري الضخم الذي يشيد الامبراطورية البريطانية ويوسع نفوذها في كل بقعة من بقاع العالم .

وقد عاد مع ابيه الى بريطانيا عام ١٨٩١ ، ليعد نفسه للمهمة التي نذر مستقبله اليها ، وفي عام ١٩٠٧ اكمل دراسته في كلية (تربتبتي) بجامعة كمبردج ، وعكف على دراسة التاريخ والقانون الهندي ، وتعلم اللغات الفرنسية والالمانية والهندستانية والفارسية والعربية ، ليعود الى الشرق ضمن افواج المخابرات البريطانية وهو مؤهل تأهيلا علميا يتيح له تبوأ أهم المراكز بين اساطين الرعيل الاستعماري البريطاني ، امثال كتشنر ، ولورنس ، ومكماهون ، وكوكس ، ومس بل ، وكلايتون ، وجلوب ، وولسن ، وديكسون ، وكرنواليس وغيرهم .

وعندما استكمل عدته ارسلته (القوة الخفية التي ترسم السياسة البريطانية) الى الهند في اوائل تشرين ثاني ١٩٠٨ ، ليعمل في اجهزة المخابرات الانجليزية هناك .. وقد بدأ عمله مع رجل الاستعمار البريطاني المعروف (المستر جنكيز) في مقاطعة (جيروم) ، وبعد تسعة أشهر نقل الى (اولندي) حيث التقى

(بدورا) ابنة المهندس الانجليزي (ادريان جونستون) فاحبها وتزوجها في نيسان ١٩١٠ وانجب منها ابنه البكر (كيم) ، الذي اصبح صحفيا والذي لجأ الى الاتحاد السوفياتي قبل سنوات كعميل للروس .

ورقي فيلبي عام ١٩١٤ ، فعين نائبا لحاكم (لايلابور) البريطاني . ثم نقل ليرأس قسم الصحافة بدائرة التحقيقات الجنائية في البنجاب . هذا هو فيلبي قبل ان تنتدبه المخابرات البريطانية للعمل في البلاد العربية .

دوره الاستعماري في العراق :

بعد انفجار الحرب العالمية الاولى في تشرين الاول ١٩١٤ ، بدأت بريطانيا تعد للدخول في الحرب ضد تركيا بهدف انتزاع ما يمكن انتزاعه من املاكها ، وفي مقدمتها العراق ، الذي يكون المدى الاخير للنفوذ البريطاني في الخليج ، وفي ٥ تشرين ثاني ١٩١٤ كانت الحملة البريطانية تشق طريقها في شط العرب متجهة للبصرة ، وقد جندت بريطانيا ابرز رجال مخابراتها لقيادة الحملة او العمل فيها ، وكان من ابرز هؤلاء السير برسي كوكس الذي انيطت به القيادة العليا ، والمستر فيلبي الذي عين ضمن الجهاز الاداري العامل تحت ادارة كوكس .

وفي العشرين من تشرين ثاني ١٩١٥ وصل فيلبي الى البصرة ، فعين للتو مساعدا ماليا لقائد الحملة السير برسي كوكس ، وانيط به الى جانب ذلك تحرير صحيفة (الاوقات البصرية) التي تصدرها دائرة المندوب السياسي البريطاني .

وبما أن جمع المعلومات هو الجانب المهم لعمله في خدمة المخابرات ، فقد كان يتجول باستمرار في المناطق الجنوبية من العراق ، التي استكمل الجيش البريطاني سيطرته عليها ، وفي سوق الشيوخ التقى بالكابتن (ديكسون) لاول مرة فاعجب به وبالطريقة التي كيف بها ديكسون نفسه للحياة العربية ، ومنذ ذلك الحين تاقت نفس فيلبي لحياة الصحراء ، ونمت في أعماقه نوازع المغامرة التي كان لها أثر كبير في رسم مستقبل حياته .

وفي السابع عشر من ايار ١٩١٦ ، وصل فيلبي الى بغداد بعد احتلالها ، وعين مساعدا ثانيا للحاكم البريطاني في العراق السير برسي كوكس لدراسة المعاملات ، واشترك مع الاب انستاس ماري الكرملي في اصدار صحيفة

(العرب) .. فكان رئيس تحريرها .

دوره في الجزيرة العربية

في ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٦ ، جاء ابن سعود الى البصرة بعد انفضاض مؤتمر الكويت ، وذلك بدعوة من صديقه السير برسي كوكس ، فتعرف عليه فيلبي لاول مرة ، بتوجيه من ادارة المخابرات البريطانية التي كانت تعد لفيلبي دورا كبيرا في حياة ابن سعود السياسية . وفي نهاية شهر آب ١٩١٧ عقد اجتماع في بغداد للتشاور في ايفاد بعثة الى الرياض لاستكمال المباحثات التي بدأها كوكس مع ابن سعود في البصرة ، وقد تقرر ان تتكون البعثة من الكولونيل (هاملتون) الوكيل السياسي البريطاني في الكويت ، والكولونيل (كانليف اوين) ، والمستر فيلبي ، وبعض المرافقين من الجنود ، وتطلب الاعداد للرحلة وقتا .. مما دعى هاملتون لان يبادر بالسفر الى الرياض لينضم الى حاشية ابن السعود ، بينما يستكمل بقية اعضاء البعثة استعدادهم على مهل ، ثم لحق به فيلبي وكانليف ورفاقهما ومعهم أموال ضخمة على شكل جنيهات ذهبية لتجهيز الحملة السعودية على ابن الرشيد .

وفي السابع عشر من تشرين اول ١٩١٧ ، وطئت اقدام فيلبي ارض الجزيرة العربية .. مفتتحا عهدا جديدا في حياته المليئة بالمغامرات . كان ذلك في ميناء العقير باقليم الاحساء ، حيث ارتدى ورفقاؤه الملابس العربية بقصد عدم استثارة المواطنين الذين لم يكونوا يكنون حبا للانجليز ، بسبب تاريخهم البشع في الخليج وسواحل الجزيرة العربية .

وفي الرياض استقبلهم هاملتون (وابن جميعة) من خدم ابن السعود ، والتقى فيلبي وبقية اعضاء بعثته بالملك عبد العزيز وقدموا له ما حملوه من اموال وتعليمات وسلاح ، وبحثوا معه الخطط التي يجب ان يتبعها في حرب ابن الرشيد . واتضح من البحث ان الاموال والاسلحة التي جلبتها البعثة غير كافية لتكوين الجيش اللازم ، كما ان ابن السعود بحاجة الى مزيد من المال والسلاح ، ولذلك ترتب على البعثة ان تعود الى بغداد لتجلب معها ما يلزم من مال وسلاح .

وفي سبيل جمع المعلومات عن الجزيرة .. فضل فيلبي ان تكون عودته الى

بغداد عن طريق الصحراء ، الى الحجاز فمصر ، ومن هناك بالبحر الى البصرة مستكملا بذلك اختراقه للجزيرة العربية من ساحل الخليج العربي الى البحر الاحمر .

كانت هذه الرحلة بداية تعرفه على الجزيرة العربية ، ويظهر ان المخابرات البريطانية وجدت في فيلبي رجلها المفضل ليكون ملك الجزيرة غير المتوج ، خصوصا بعد ان رأت لديه الاستعداد اللازم لحياة الصحراء الخشنة في سبيل خدمة اغراض الامبراطورية .

وقد اكد فيلبي هذا الاستعداد عندما اعادته المخابرات البريطانية فورا الى الجزيرة العربية مرفقا بالمال والسلاح اللازم ، فقد التقى بابن سعود هذه المرة في صحراء الدهناء ، حيث اخذ يعود نفسه ــ كما يقول ــ على حياة الصحراء ، ويوثق علاقاته بافراد الاسرة السعودية ومن بينهم فيصل ، الذي تولى اعداده اعدادا يخدم الاتجاه البريطاني ، وكان فيصل آنذاك في الثانية عشر من عمره .

لقد كان لفيلبي عدد من المهمات الكبرى في الجزيرة العربية ، منها تحريض ابن السعود على ازالة ابن الرشيد من الجزيرة العربية ، ومنها ازالة الحكم الهاشمي من الحجاز ، ومنها جمع المعلومات العامة اللازمة للمخابرات البريطانية في الجزيرة العربية ، واخيرا الاقامة الى جانب عبد العزيز يوجه سياسته الى ما يخدم المصالح البريطانية . وسنتحدث عن هذه المهام بالترتيب .

١ ــ تحريض ابن سعود على مهاجمة ابن الرشيد

سبق ان تحدثنا عن جهود فيلبي في دفع ابن السعود لحرب ابن الرشيد ، وجلبه له المال والسلاح ، فقد عاد من العراق وهو يحمل معه مائة ألف ريال سلمها له مع السلاح المطلوب ، واشترك في وضع خطط الزحف الذي بدأ في مطلع شهر آب ١٩١٨ ، وكان فيلبي يرقب المعركة من شرفة عالية لبرج قريب ، بعد ان منعه ابن سعود من الاشتراك المباشر خوفا عليه من المصير الذي لاقاه سلفه النقيب شكسبير .

٢ ــ كانت بريطانيا قد وعدت الشريف حسين بتكوين دولة عربية تضم الاقاليم العربية التي كانت تحت الحكم العثماني ، وهي الحجاز والعراق وسوريا

وفلسطين ، وذلك في مقابل اعلان الثورة العربية ضد الدولة العثمانية والتعاون معها في الهجوم على سوريا وفلسطين ، وقد كانت الاتصالات بهذا الشأن تدور بواسطة المندوب السامي البريطاني في القاهرة السير مكماهون ، واطمأن الملك حسين للاوعاد البريطانية .. فاعلن الثورة العربية في ٩ شعبان ١٣٣٥ (تموز ١٩١٦) ، الا ان هذه الاوعاد اصطدمت باتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦ ، التي اقر فيها البريطانيون باستيلاء فرنسا على سوريا ولبنان مقابل اشتراكها في الحرب . واصطدمت بوعد بلفور لليهود عام ١٩١٧ باعطائهم فلسطين وطنا قوميا مقابل حمل اليهود لامريكا بالمشاركة في الحرب الى جانب الحلفاء ، كما اصطدمت برغبة حكومة الهند البريطانية بالسيطرة على العراق باعتباره جزءا من منطقة الخليج الذي يجب ان يكون امتدادا للهند .. الدرة الكبرى في التاج البريطاني .

اما العراق ، فقد حلت موضوعه الثورة العراقية التي اجبرت بريطانيا على اعطائه نوعا من الاستقلال تحت تاج الملك فيصل بن الحسين ، وأما سوريا ولبنان فقد احتلتهما الجيوش الفرنسية وحلت الحكومة العربية فيها بعد معركة ميسلون في ٢٥ تموز سنة ١٩٢٠ .

اما فلسطين .. فقد ظل الصهاينة يضغطون على بريطانيا بتنفيذ وعد بلفور وتؤيدهم امريكا بقوة ، وقد حاولت بريطانيا ان تقنع الملك حسين باعطاء فلسطين لليهود في مقابل تشكيل امارة في شرق الاردن يكون ابنه عبد الله اميرا عليها ، ولكن الملك لم يقنع بكل المحاولات البريطانية واصر على توحيد البلدان العربية الآسيوية كلها في دولة عربية واحدة ، تنفيذا للوعد البريطاني المعطى له .

وقد وجدت بريطانيا الحل الوحيد لهذا الاشكال في ازالة الملك حسين والخلاص بذلك من الوعد القديم ، وكان ابن السعود هو الحربة التي وجهتها بريطانيا لقلب الحكم الهاشمي في الحجاز عام ١٩٢٤ .

اما دور فيلبي في هذا العدوان فيتمثل في مجالين ، الاول هو فتح الضوء الاخضر امام ابن سعود لمهاجمة الحجاز وتقديم الدعم العسكري الممثل في المعدات والاسلحة ، والمجال الثاني هو سفره الى جدة عام ١٩٢٥ بحجة التوسط بين الخصمين المتحاربين ، في الوقت الذي ظل يعمل فيه تحت الحماية البريطانية على خلق طابور خامس لصالح ابن السعود ، وبث روح الهزيمة بين سكان جدة

ومواطنيها ، وتثبيط عزيمة الحكم الهاشمي عن مواصلة الحرب بجدية والاعتماد على وعود بريطانيا بالوساطة ، وجمع المعلومات عن جيش الحجاز وقدراته العسكرية وخططه وارسالها لابن سعود بواسطة السفارة البريطانية عن طريق القاهرة والخليج .

وبعد ان انهى فيلبي مهمته في جدة ، غادرها في اليوم الثالث من كانون الثاني ١٩٢٥ ، وفي اليوم التالي لمغادرته .. بدأ القصف السعودي لجدة ، وعاد فيلبي الى ابن سعود ليلتقي به في الشميسي بالقرب من مكة .

ويذكر فيلبي عن نفسه انه قال لابن سعود في هذا اللقاء (ان جدة من الناحية العسكرية عاجزة عن الصمود ، كما اكدت له ان غالبية اهلها يريدون نهاية سريعة) .

٣ ــ في اواخر كانون الاول عام ١٩٢٥ استسلمت جدة لابن سعود ، فانتهت مرحلة من مراحل فيلبي التي تتلخص في رسم الخطوط الاولية للخريطة السعودية ، وبدأت المرحلة الثانية التي يتولى فيها توجيه السياسة الادارية والداخلية والعلاقات الخارجية للدولة السعودية الجديدة ، والبقاء الى جانب ابن السعود كمندوب لبريطانيا فوق العادة وكمستشار خاص له .

ومع بداية عام ١٩٢٦ اصبح فيلبي المستشار الخاص الدائم لابن السعود ، وفي هذا الصدد يقول فيلبي (لقد عرفت ابن سعود ستة وثلاثين عاما هي نصف حياة هذا الملك ، وكنت طيلة الثلاثة والعشرين عاما الاخيرة منها على اتصال دائم به .. لا انقطاع فيها مطلقا) .

وهذه الدعوى اكدها الاستاذ امين المميز في كتابه « السعودية كما عرفتها » ، حينما يتحدث عن مشاهداته فيقول (كان الملك عبد العزيز في مجلسه بالطائف ، وكان ذلك قبل وفاته ببضعة اشهر ، وكانت تبدو عليه علائم الهرم والخور وضعف بصره ولا يكاد يسمع له صوت ، وكان يجلس على كرسي متنقل ، فدخل فيلبي وجلس على مقعد بعيد عن الملك ، ولما ابصره الملك وشخصه أومأ اليه أن يقترب ويجلس الى جانبه ويسولف له) .

وقد كان اول مهمات فيلبي في هذه المرحلة العمل على ترسيخ هذه الدولة الجديدة التي شارك بالكثير من جهوده في صنعها ، ولذلك اوحى للملك بتوحيد الحجاز مع نجد في دولة موحدة .. بعد ان كان الحجاز مملكة ونجد سلطنة ، وكان لقب ابن سعود تبعا لهذا التوزيع (ملك الحجاز وسلطان

نجد) ، فاقترح فيلبي لها اسم المملكة العربية السعودية ، وكان بنفسه اول من اذاعها للعالم عن طريق الصحافة البريطانية ، واستمر فيلبي عاملا مهما في سياسة الملك ابن السعود .. سواءاً ما يتصل منها بالبريطانيين وما يسترشد فيها برأيهم ، ولذلك اصبح فيلبي يصاحب ابن سعود حتى في رحلات صيده وقنصه ، وظل معتمده في جيمع الشؤون ذات الوزن الكبير .

ففي سنة ١٩٣٩ اناط به عبد العزيز الاشراف على جهاز مواصلاته ، وفي هذه السنة اوفده مع ابنه فيصل كمستشار الى لندن لحضور مؤتمر دعت اليه بريطانيا لبحث قضية فلسطين ، على اثر الثورة الفلسطينية الكبرى . وصحبه معه الى مصر عام ١٩٤٦ .

واكثر من ذلك انه اختاره عام ١٩٣٤ لالقاء خطاب عنه في مأدبة اقامها للوفد اليمني الذي جاء ليبحث شروط الصلح والانسحاب من اليمن .

وقد كان نفوذ فيلبي على ابن السعود وتأثيره الكبير في شؤون الدولة السعودية معروفا في الخارج كما هو منظور في الداخل ، ولذلك اتخذته بعض الشركات الكبرى مدخلا ووسيطا الى صفقات كبرى في الجزيرة ، ومن اهم هذه الصفقات صفقة امتياز البترول .

ويحدثنا فيلبي عن دوره في هذه الصفقة فيقول انه كان الوسيط بين ابن سعود والمستر كراين الذي جاء الى جدة في ايار ١٩٢١ بحثا عن البترول ، وانه تلقى بعد ذلك برقية من المستر (لوميس) نائب مدير شركة (ستاندارد اويل اوف كاليفورنيا) يعرض عليه ان يقنع ابن سعود بمنح شركته امتيازاً للتنقيب عن البترول ، ويخوله التفاوض باسم الشركة مع ابن سعود ، ويقول فيلبي عن نفسه (انه شرع فورا في مفاوضته مع الملك ووزير ماليته عبد الله السليمان ، وبعث الى المستر لوميس الذي اوفد المستر هاملتون .. احد مستشاري الشركة ، والمهندس تويتشل ، للبدء في المفاوضات الرسمية في كانون ثاني ١٩٣٣) .

ويعقب فيلبي على ذلك بانه شارك في مطلع ايار من هذا العام بعدد من الجلسات التي عقدها مجلس الملك الخاص في مكة ، والتي وضعت فيها مسودة الاتفاقية مع الشركة الامريكية . وقد وقع الاتفاق عن ابن سعود وزير ماليته عبد الله السليمان .. وعن الشركة مستشارها المستر هاملتون .

وكان فيلبي جريئا في التعبير عن آراء ابن السعود التي لا يكشفها الا

للبريطانيين وحدهم ، او التي يستجيب فيها لرغبتهم ، ومن ابرز هذه المواقف اعلانه عن موافقة ابن سعود على مشروع تقسيم فلسطين بين الصهاينة والعرب ، وعن هذا الموضوع يقول في الصفحة ٤١٤ من كتابه (اربعون سنة في الصحراء) ما نصه : (لقد اتهمني اصدقائي السعوديون اكثر من مرة بانني كنت اسيء تصوير مواقف الملك ابن سعود من مختلف القضايا ، ولكنني أؤكد انني كنت احسن ايضاحا لآرائه من كثيرين من المستشارين الذين كانوا يتظاهرون بانه يحمل عين الآراء التي يحملونها هم) .

لقد كان فيلبي صادقا فيما قاله ويشهد له بذلك موقفه عام ١٩٣٩ اثناء حضوره مؤتمر لندن مع فيصل ، فقد اقترح تسليم فلسطين كلها للصهاينة في مقابل ما سماه استقلال البلاد العربية كلها ، وبالرغم من الضجة التي اثيرت على فيلبي .. فقد ظل المستشار الاول لابن سعود حتى نهاية حياته بعد ١٤ عاما .

بعد ان استقر الوضع في الجزيرة العربية لصالح ابن السعود ، فكر فيلبي ان لا يترك فرصة الا ويكون فيها قريبا من ابن سعود ، ولكن مسيحيته كانت عائقا دون مرافقة الملك اثناء وجوده في مكة المكرمة ، وكان مقام الملك فيها يطول اكثر مما يستطيع فيلبي الصبر عليه ، بحكم كون مكة آنذاك العاصمة الدينية والادارية لمملكة ابن سعود ، ولذلك كان الحل في رأي فيلبي وابن سعود معا ان يتظاهر بالاسلام ، ليصبح في امكانه دخول المشاعر المقدسة .

وفي مظاهرة مسرحية .. توجه فيلبي مع ثلاثة من كبار رجال ابن سعود ـــ هم وزير المالية عبد الله السليمان ومدير عام الخارجية فؤاد حمزة وصالح العنقري احد المطاوعة ـــ الى البيت العتيق في مكة ، فطاف وسعى وأعلن اسلامه على الملأ ، وكان ذلك في السادس من آب ١٩٣٠ .

وما اكثر ما يمكن ان يقال بصدد اسلام الحاج عبد الله فيلبي ، لولا اننا نميل الى عدم الخوض فيه .

٤ ـــ لعل هذه المهمة التي نحن بصددها ، كانت الاكثر اثرا في حياة فيلبي ، والاعمق رسوخا في بناء شخصيته التاريخية وسمعته العالمية ، فبالرغم من انه كان منتدبا من قبل المخابرات البريطانية لجمع المعلومات عن الجزيرة العربية جغرافيا وسكانيا .. الا انها تمخضت عن اعطاء فيلبي مكانة دولية ممتازة ، فقد خرج من رحلاته المتوالية داخل الجزيرة العربية وفي الربع الخالي بعدد من المؤلفات

الثمينة منها : قلب الجزيرة العربية ، والجزيرة العربية الوهابية ، والنجود العربية ، واربعون عاما في الصحراء ، وفتيات سبأ ، واليوبيل العربي ، وحاج في بلاد العرب والربع الخالي ، وايام عربية ، وارض الانبياء ، بالاضافة الى كتبه الاخرى : اصول الاسلام ، واسطورة ليخمن ، وتاريخ هارون الرشيد .

وقد بدأ فيلبي هذه المهمة لصالح المخابرات البريطانية منذ وطأت قدمه أرض الجزيرة العربية عام ١٩١٧ ، فسجل مشاهداته وهو في طريقه من العقير الى الرياض .. ثم من الرياض الى جدة ، كما انه قام برحلة الى جنوب نجد وصل فيها الى وادي الدواسر ، حيث اقام عشرة ايام يبحث فيها ويسجل .

وفي هذه السنة قام برحلة اخرى من البصرة الى الكويت فبريدة ثم الرياض ، مسجلا بذلك اختراق الصحراء من الشمال الى الرياض في الجهة الشرقية كما اخترقها قبلا من الخليج شرقا الى البحر الاحمر غربا ، وقام باختراق الجزء الشمالي من الجزيرة في الغرب في ٢٩ ــ ١٢ ــ ١٩٥٠ ابتداءا بجدة وانتهاءا بمدائن صالح التي كتب عنها كتابه المعروف بأرض الانبياء ، كما قضى عام ١٩٣١ وهو يطوف بالاماكن القريبة من مكة ويزور معالمها التاريخية والوديان المحيطة بها .

واهم رحلاته رحلته الى الربع الخالي التي بدأها في السابع من كانون ثاني ١٩٣٢ منطلقا من الهفوف بالاحساء مارا بواحة يبرين وتوغل بعدها في الربع الخالي ، واخيرا رحلته الى الجنوب اليمني عام ١٩٣٦ ، حيث وصل الى سبأ وحضرموت مارا بنجران وعسير وجيزان ، والتي استغرقت تسعة اشهر .

وقد افاد فيلبي كثيرا من هذه الرحلات ، فبالاضافة الى المعلومات التي قدمها الى المخابرات البريطانية والخرائط التي رسمها لها ، فقد جمع المئات من انواع الطيور والحشرات وارسلها الى المتحف الطبيعي بلندن ، كما حصل على العديد من العاديات ، واطلع على سبعة آلاف مخطوطة حميرية سجلها وصورها وارسل بما جمعه عنها الى بريطانيا ، لقد كان فيلبي اول اوروبي يقوم بكل هذه الرحلات الاستكشافية في جزيرة العرب ، وكان ابن السعود يقدم له كل متطلبات الرحلة من مال ورفاق وحراس ومعونات ، ويوصي به امرائه المنتشرين في المدن والقرى في طول الجزيرة وعرضها .

ويحاول فيلبي في بعض الاحيان فيدعى ان بعض رحلاته كانت لحساب الملك عبد العزيز الذي كلفه برحلته الاخيرة الى الحدود اليمنية لرسم خرائط الحدود

الجديدة بين السعودية واليمن ، ولكن وصوله الى سبأ وحضرموت يفضح هدف الرحلة .. فقد كان الهدف الحقيقي منها هو جمع المعلومات عن اليمن وحضرموت بالاضافة للمعلومات التي تخص نجران وجيزان وعسير ، وذلك لصالح المخابرات البريطانية . فقد ذكرت مجلة (الشرق الحديث) الايطالية في مقال لها بتاريخ ١٩٣٧ (أن الرحلة التي قام بها فيلبي لحضرموت عام ١٩٣٦ هي التي مهدت الطريق امام الاحتلال البريطاني الذي تم بعد هذه الزيارة لهذه المنطقة وضمها الى مناطق النفوذ والاحتلال البريطانيين) .

ان فيلبي يحاول جاهدا ان ينفي عن نفسه العمل مع المخابرات البريطانية ، وانه عضو هام في (القوة الخفية) التي ترسم السياسة البريطانية ، بالرغم من انه يورد هذه الاتهامات الموجهة اليه ، فقد ذكر فيلبي (ان جمال الحسيني مستشار الملك سعود ابلغه قبيل تسفيره ان الجميع مقتنعون انه يعمل تحت تأثير دولة اجنبية) .

ومرة اعترف فيلبي عن عمالته بوضوح عندما قال عن نفسه ما نصه (انه بعد نشوب الحرب الكونية في مطلع ايلول ١٩٣٩ ، تلقى عرضا من سلطات المخابرات في وزارة الحرب البريطانية بأن يكون مندوبا عنها في البلاد العربية ، وان ينقل اليها ردود فعل العرب تجاه الحرب) .

ومرة ثانية يشير الى مهمته الحقيقية عندما يقول (انه في عام ١٩١٨ كان مع ابن السعود في الدهناء ، وانه كان يعمل في خيمته التي ينام فيها ، فهي مكتبه وهي النادي الذي يجتمع اليه فيه الكثيرون من اتباع ابن سعود ، يقبلون عليها للتدخين وتبادل الاحاديث ، وهو يستمع الى كل ما يقولونه من آراء تتناول الاوضاع بصورة عامة ، فيدون منها ما يهمه ويضمنها تقاريره التي يطبعها بنفسه ليبعث بها الى رؤسائه) .

ويذكر مرة اخرى انه بقى في بغداد بعد رحلته الاولى الى نجد (وهو يجمع الوثائق ويصنف الاحداث ويرتب الوقائع ليضعها في تقرير رسمي يقدمه الى المندوب السامي البريطاني الجديد ويلسون) .

كما ذكر انه قضى وقتا في وزارة الخارجية البريطانية بلندن عام ١٩١٩ وهو يعد الخرائط اللازمة عن الاماكن التي تجول فيها في الجزيرة العربية .

مشاريعه التجارية

لقد شعر فيلبي بأن إقامته في المملكة بدون عمل شكلي يثير الظنون حول مهمته ويخلق له متاعب يصعب التخلص منها ، فقرر ان يكون شركة بريطانية في جدة يكون هو مديرها ، ليخفي مهمته الحقيقية وراءها ، ولذلك افتتح للشركة محلا في جدة عام ١٩٢٦ وحصل لها على وكالة مصانع فورد للسيارات ، كما شرعت ببيع آلات المسح وادوات الهندسة والمراوح التي تعمل بالجازولين ، وحصلت على مناقصة لتزويد مشروع المياه في جدة بالفحم الحجري الذي تستورده من بريطانيا . كما حصلت على صفقة استيراد الف خيمة للملك عبد العزيز ووكالة شركة (سكوني) لبيع الكيروسين والبنزين ، وتعاونت مع شركة ماركوني في تجهيز بعض مدن الحجاز بشبكة من المواصلات اللاسلكية ، كما تعهدت للحكومة السعودية بسك عملتها الفضية والنيكلية الجديدة في مسابك برمنجهام .

وقد كانت هذه الشركة واعمالها مجرد غطاء لبقاء فيلبي الى جانب ابن سعود يحكم الجزيرة باسمه لصالح حكومته البريطانية ، ولو كان هدف فيلبي من شركته الربح لاصبح من كبار اصحاب الملايين ممن كانوا يتعاطون التعهدات مع الحكومة السعودية ، خصوصا وان فيلبي يملك من الدالة على الحكم السعودي ومن الاتصالات الخارجية فوق ما يملكون ، ولكن فيلبي خرج من الجزيرة وكل ممتلكاته من نقد وعقار وسهام لا تتجاوز عشرات الآلاف من الجنيهات .

وهذا ما يؤكد ان فيلبي كان يعمل لبلده وحكومته لا لنفسه ، ويخطيء من يظن ان فيلبي مجرد موظف لدى البلاط السعودي ، فقد كان يرى نفسه ندا للملك ـــ ان لم يكن الملك الحقيقي ـــ ، ولذلك ابى ان يتناول من الحكم السعودي اي عطاء او مرتب ، وظل يحتفظ بجنسيته البريطانية رغم ما يتظاهر به من كونه مجرد مستشار للملك .

مهمة فيلبي بالنسبة لشعب الجزيرة العربية

استعرضنا مهمة فيلبي بالنسبة للحكم السعودي ، وبقى ان نعرض ـــ ولو

بايجاز ـــ الى مهمته بالنسبة لشعب الجزيرة العربية الذي ظل يحكمه من وراء الستار اكثر من ثلث قرن ويوجه مصائره .

لقد كان مجمل مهمته في هذا المجال ان يبقي الجزيرة العربية مشلولة عن الحركة في اتجاه التطور التاريخي ، ولذا لم نجده هو الذي يكثر من الحديث عن مواقفه وآرائه واعماله ، يسجل لنفسه موقفا معينا او رأيا في صالح الشعب ، فلم يتحدث عن حرية المواطن او التعليم او التصنيع او شيء من هذا القبيل . وحتى عندما اضطر الى مهاجمة الحكم السعودي بعد ضعف نفوذه على اثر موت الملك عبد العزيز ، لم ينتقد سوى اطلاق يد منافسيه من الحاشية الملكية في التصرف بميزانية الدولة لصالحهم ، وقد سجل فيلبي لنفسه هذا الموقف عندما قال (قلت لجلالته .. انا لا أرى داعيا لاستيائك ، فانت تعرف ان ما كتبته هو الصحيح ، فانت ملك مطلق .. وانت تتحكم بميزانية دولتك وتنفق منها كما تشاء ، هذا أقدره وأفهمه ، ولكنني لا استطيع ان افهم لماذا تسمح لخدمك وموظفيك بسرقتك وسرقة أموالك كما يفعلون الآن ، وهو ما يعرفه كل انسان ؟) .

ولذلك لم يقم في الجزيرة العربية اي مشروع لصالح الشعب طيلة عهد الملك عبد العزيز ، وكل ما حصل بعد ذلك كان بمجهود بعض الموظفين المخلصين الذين استطاعوا باسلوب أو بآخر التأثير على الملك سعود لاقرارها .

ومن هنا نعرف مدى الحسرة التي اصيب بها فيلبي للتطور البسيط الذي طرأ على مظاهر الحياة في الجزيرة العربية بسبب الثروة البترولية ، التي تركت ـــ بالرغم من فيلبي ومن الحكم السعودي ـــ لمساتها الواضحة في حياة المواطنين المالية .

وقد عبر فيلبي عن هذه الحسرة في عدد من أقواله منها قوله (ها هي العربية السعودية تخلف وراءها ماضيها الطويل اللامع لتحتل مكانا متواضعا في العالم الحديث ، الذي لن تستطيع ان تسهم في ترقيته واعلاء شأنه ، وانما يقتصر دورها على الاقتراض من عقائدياته ومقاييسه) .

ويقول في مكان آخر (ان احلامي قد بدأت بالانهيار امام هذه الموجة الطاغية التي انطلقت من عقالها متحررة من ذلك العهد المتزمت الصارم الذي كانت تعيش فيه) .

ويقول مرة اخرى (لقد تغير الشرق الذي كنا نحسبه لا يتغير ، واصبحت

الاحداث تسبق جهود الانسان في تسجيلها وتاريخها لمنفعة الاجيال القادمة) .

اجل .. لقد تغير العالم ، ولكن فيلبي ـــ رغم ثقافته الواسعة وتجاربه الكثيرة ـــ لم يستطع ان يغير مفاهيمه الاستعمارية التي نشأ عليها وكرس لها كل حياته ، ولذا نراه يشكو من الغربة في العالم الجديد ، ويتفجر باللوعة والحنين الى العالم الفكتوري القديم الذي كانت فيه الشمس لا تغرب عن الامبراطورية البريطانية العظمى ، التي كان احد اساطين استعمارها .

طرده من الجزيرة العربية

في يوم من ايام أيار عام ١٩٥٥ اذاع راديو جدة (ان جلالة الملك سعود قد أمر باخراج فيلبي من بلاده واراضيه ، مع منحه جميع املاكه وامواله ، لانه اخذ يتجه اتجاهات غير ملائمة ، بالرغم من تحذيره عدة مرات ، مما اضطر جلالته الى ان يتخذ معه اسهل ما يمكن من الاجراءات) .

وهكذا جلى فيلبي في الخامس من ايار ١٩٥٥ عن الجزيرة طريدا ، بعد ان دخلها قبل ثلث قرن ملكا غير متوج عليها ، أما سبب طرده المعلن فهو انه كتب مقالا في مجلة (الشؤون الخارجية) التي تصدر في واشنطن ، وذلك في نيسان ١٩٥٤ ، يهاجم فيه منافسيه من الحاشية الملكية السعودية واسلوب التصرف في اموال الدولة ، مما اثار حقد الحاشية التي اغتنمت الفرصة لايغار صدر الملك سعود عليه . ولعل لامريكا وشركاتها البترولية في مملكة آل سعود ضلع في ان ترى آخر مظهر للنفوذ البريطاني المزاحم لها يزول بزوال فيلبي ، فشاركت في التحريض عليه .

وقد اكد فيلبي نفسه انتهاء دوره في الجزيرة العربية بوفاة صديقه ـــ او عميله ـــ الملك عبد العزيز بقوله (شعرت فور وفاة الملك عبد العزيز بأن دوري قد انتهى ، وان لا مكان لي في العهد الجديد) .

وعن ختام حياته في الجزيرة العربية يقول فيلبي (لقد كانت غارقا في السعادة والهناء ، ولاشيء يوحي الي بأن ايامي في الصحراء قد غدت معدودة) .

المصادر

١ ــ ابن سعود تعريب مصطفى الحفناوي
٢ ــ اسود آل سعود ابراهيم آل خميس
٣ ــ الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة سيد نوفل
٤ ــ بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤ صالح زكي
٥ ــ البلاد العربية السعودية فؤاد حمزة
٦ ــ تاريخ الدولة السعودية امين سعيد
٧ ــ تاريخ الكويت السياسي حسين خلف الشيخ خزعل
٨ ــ تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها صلاح الدين المختار
٩ ــ تاريخ نجد ــ عبد الله فلبي تعريب عمر الديراوي
١٠ ــ التيارات السياسية في الخليج العربي صلاح العقاد
١١ ــ الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية ــ جي.بي.كيلي تعريب خيري حماد
١٢ ــ جزيرة العرب في العصر الحديث صلاح العقاد
١٣ ــ جزيرة العرب في القرن العشرين حافظ وهبة
١٤ ــ الخليج العربي جمال زكريا قاسم
١٥ ــ الخليج العربي امين سعيد
١٦ ــ الخليج العربي في ماضيه وحاضره خالد العزي
١٧ ــ الخليج العربي والعلاقات الدولية محمود علي الداود
١٨ ــ خمسون عاما في جزيرة العرب حافظ وهبة
١٩ ــ دليل الخليج ج ج لوريمر تعريب مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر
٢٠ ــ الدولة السعودية الاولى عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

٢١ ــ السعودية كما عرفتها امين المميز
٢٢ ــ سكة حديد بغداد لؤي بحري
٢٣ ــ شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز خير الدين الزركلي
٢٤ ــ الشرق الاوسط جورج لنشوفسكي تعريب جعفر خياط
٢٥ ــ العالم العربي الحديث جلال يحيى
٢٦ ــ عاهل الجزيرة عبد الرحمن نصر
٢٧ ــ عبد العزيز آل سعود بنواميشان تعريب عبد الفتاح ياسين
٢٨ ــ عبد الله فلبي خيري حماد
٢٩ ــ العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الاولى مكي شبيكة
٣٠ ــ فصول من تاريخ العراق القريب مس بل تعريب جعفر خياط
٣١ ــ الكويت كانت منزلي زهر ديكسون
٣٢ ــ الكويت وجاراتها الميجر ديكسون
تعريب جاسم مبارك الجاسم
٣٣ ــ مقدمة في العلاقات الدولية محمد سامي عبد الحميد
٣٤ ــ ملوك العرب امين الريحاني
٣٥ ــ الوطن العربي حسن العطار

الفهرس

تمهيد	٧
أهمية الخليج للاستعمار البريطاني	٨
المطامع البريطانية في منطقة الأحساء	١٢
العلاقات التركية البريطانية	١٦
بريطانيا تبرز ابن سعود على المسرح الدولي	١٩
تاريخ الطلاق بين بريطانيا والأسرة السعودية	٢٢
دور المخابرات البريطانية في تكوين الدولة السعودية	٢٦
عبد العزيز يتبنى تنفيذ المخططات البريطانية	٣١
العلاقات التركية السعودية	٤٤
مواقف الحكم السعودي المنحازة لبريطانيا	٤٦
بريطانيا تعد ابن سعود للمهام الكبرى	٤٩
معاهدة دارين	٥٣
معاهدة جدة « بحرة »	٦٥
التبادل الدبلوماسي بين بريطانيا والحكم السعودي	٧٦
تضاؤل الدور البريطاني في سياسة السعودية	٧٨
النفوذ البريطاني	٨٣
الملك البريطاني في الجزيرة العربية	٩٤
المصادر	١٠٧